
روايات مصرية للجيب
د. نبيل فاروق
رجل المستحيل
مدينة الذئاب
137
www.liilas.com/vb3
^RAYAHEEN^
المؤسسة العربية الحديثة

مدينة الذئاب

- ما مصير فريق (أدهم)، بعد أن سقط الكل في قبضة (المافيا) الروسية ؟!
- ماذا يمكن أن يحدث، بعد أن تحول الأمر إلى حرب طاحنة بين الذئاب ؟!
- ترى كيف تدور المعركة هذه المرة، ومن يربح حرب (مدينة الذئاب) ؟!
- اقرأ التفاصيل المثيرة، وشارك بعقلك وكيانك مع الرجل .. (رجل المستحيل) ..



د. نبيل فاروق

رجل المستحيل
سلسلة روايات بوليسية للشباب زاخرة بالأحداث المثيرة

137



(الضحايا)

رجل المستحيل

(أدهم صبرى).. ضابط مخابرات مصرى، يرمز إليه بالرمز (ن-١).. حرف (النون)، يعنى أنه فئة نادرة، أما الرقم (واحد) فيعنى أنه الأول من نوعه؛ هذا لأن (أدهم صبرى) رجل من نوع خاص.. فهو يجيد استخدام جميع أنواع الأسلحة، من المسدس إلى قاذفة القنابل.. وكل فنون القتال، من المصارعة وحتى التايكوندو.. هذا بالإضافة إلى إجادته التامة لستّ لغات حيّة، وبراعته الفائقة فى استخدام أدوات التنكّر و(المكياج)، وقيادة السيارات والطائرات، وحتى الغواصات، إلى جانب مهارات أخرى متعدّدة.

لقد أجمع الكل على أنه من المستحيل أن يجيد رجل واحد فى سن (أدهم صبرى) كل هذه المهارات.. ولكن (أدهم صبرى) حقق هذا المستحيل، واستحق عن جدارة ذلك اللقب الذى أطلقته عليه إدارة المخابرات العامة لقب (رجل المستحيل).

د. نبيل فاروق

١- الخدعة ..

تعالى وقع أقدام مسرعة ، عبر ممرات مبنى المخابرات العامة المصرية ، فى تلك الساعة المبكرة ، قبل أن يندفع النائب الأوّل لمدير الجهاز إلى حجرة هذا الأخير ، وهو يقول فى توتر شديد :

- أنباء مزعجة للغاية من (موسكو) ياسيِّدى .

انتقل توتره فورًا إلى المدير ، الذى تراجع فى مقعده ، متسائلاً :

- بشأن (ن - ١) .

أجابه نائبه فى سرعة ، وهو يضع أمامه برقية عاجلة من صفحتين :

- بشأن الجميع .

لم يدر المدير كيف وثبت الأحداث كلها إلى ذهنه دفعة واحدة ، وهو يميل لالتقاط تلك البرقية الكبيرة ..

منذ لحظة سقوط (أدهم) على جليد (موسكو) ، بعد أن قتل (إيفان إيفانوفيتش) ، زعيم (المافيا) الروسية هناك(*) ..

لقد بذل الروس جهدًا كبيرًا لإنقاذه وإسعافه ، وعلى رأسهم عدوه اللدود السابق (سيرجى كوربوف) ، الذى تعامل فى هذا الموقف وكأنه أصدق أصدقائه ، وليس خصمه السابق ..

ولكن المخابرات الروسية ألقت القبض على ذلك الفريق الثلاثى ، الذى انتقاه (أدهم) بعناية بالغة ، وخبرة واسعة ، من بين صفوف كل المتدربين ، المرشحين للالتحاق بالمخابرات العامة ..

ومن ناحية أخرى ، راحت (المافيا) الروسية تسعى للانتقام ، وخاصة بعد أن تولّى قيادتها (يورى إيفانوفيتش) ، شقيق (إيفان) ، الذى يتداعى عقله على ذلك الجسر الضيق ، بين العبقرية والجنون ..

(*) راجع قصة (الأبطال) .. المغامرة رقم ١٢٤

وبسبب هذا المزيج العقلى المتناقض ، كانت عملية الانتقام عنيفة ..

وإلى أقصى حد ..

ففى آن واحد تقريبًا حدثت محاولتان لاغتيال (أدهم) وفريقه ..

ولكنهما فشلتا ..

بل ، وأيقظتا (أدهم) بمعجزة طبية ، من غيبوبة تصوّر البعض أنها ستدوم طويلاً ..

أو ربما إلى الأبد ..

ومع استعادته لوعيه ، كان على (أدهم) أن يخوض ، مع فريقه الجديد ، حربًا طاحنة ..

وعلى جبهتين قويتين فى آن واحد ..

فبعملية متقنة ، ومن خلال عميل خائن ، يحمل رتبة جنرال ، فى صفوف المخابرات الروسية ، أصبح (أدهم) وفريقه وزميلته (منى) ، وشقيقه الدكتور

(أحمد) ، وصديقه خبير التزوير (قدرى) مجرَّد فرائس ، تبحث عنها (روسيا) كلها ..

وبشقيها ..

السلطة الرسمية ..

ومنظمة (المافيا) الروسية ..

وأصبح على الجميع أن يقاتلوا بعنف ، من أجل البقاء ..

وكأى قائد حربى خبير محنَّك ، وضع (أدهم) خطة للاستفادة من كل الطاقات ، ولتحويل دفة الحرب ، من الدفاع إلى الهجوم ..

ولكن هذا أصاب الطرفين بالجنون ..

المخابرات الروسية ، ومنظمة (المافيا) ..

وتحولت الحرب إلى حملة مسعورة للعثور على الفريق المصرى ..

وبأى ثمن ..

وفى الوقت الذى راح الكل يبحث فيه عن (أدهم) ورفاقه ، سقط (علاء) ، أفضل عنصر فى فريقه ، فى قبضة المخابرات الروسية ..

وكان من المحتم أن يسعى (أدهم) لإنقاذه ..

مهما كان الثمن ..

ولكن المخابرات الروسية اتخذت كل احتياطاتها ، لإلقاء القبض على (أدهم) بمجرَّد اقترابه من مقر قيادتها ..

أما منظمة (المافيا) الروسية ، فقد أدرك زعيمها الجديد أن المعركة تعتمد اعتمادًا كبيرًا على التكنولوجيا الحديثة ، فاستدعى واحدًا من أشهر خبرائها ، ليدير اللعبة بأسلوب آخر ..

أسلوب المحترفين ..

وبجرأة مذهلة ، انتحل (أدهم) شخصية آخر مخلوق ، يمكن أن يشك فيه أحد ..

مدير المخابرات الروسية ذاته ..

ودخل مبنى القيادة بالفعل ، وتحت سمع وبصر الجميع ..

ولكن دوام الحال من المحال ..

ففى الوقت الذى راح (يورى إيفانوفيتش) يخطط فيه للسيطرة على العالم ، شأن أى مجنون ، كان رجاله يتبعون تعليمات خبير الاتصالات الفنلندى العالمى ، وينقضون على رفاق (أدهم) ، واحدًا بعد الآخر ..

وفى قبضتهم سقط (قدرى) ، والدكتور (أحمد صبرى) ، و(شريف) ، و(ريهام) ..

أما (أدهم) نفسه فقد كانت المخابرات الروسية كلها تستعد للانقضاض عليه ، داخل مبنى قيادتها ، فى قلب (موسكو)(*) ..

« يا له من موقف !! » ..

(*) لمزيد من التفاصيل ، راجع الجزأين ، الأول والثانى (الأستاذ) ، و(المقامرة الكبرى) .. المغامرتين رقمى ١٣٥ ، و ١٣٦ .

ردد مدير المخابرات العامة المصرية العبارة ، وهو ينتهى من قراءة البرقية الطويلة للمرة الثانية ، ثم أطلق من أعمق أعماق صدره زفرة ملتهبة ، وهو يتراجع فى مقعده ، ويشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، متابعًا بكل توتره :

ـ الأخبار ليست مزعجة فحسب ، بل هى مخيفة إلى أقصى حد ، فمن الناحية العملية ، لم يعد لدينا فى (موسكو) سوى (أسعد) و(منى) فحسب ؛ فوحدهما لديهما حرية الحركة إلى حد ما ، والأول لم يذكر فى برقيته الطويلة موقف الثانية ، مما يعنى أننا نجهل طبيعة موقفها وموقعها تمامًا ، ولابد من التأكيد عليه بعدم إهمال تفصيلة مهمة كهذه مستقبلاً ، أما (ن ـ ١) و(علاء) ، فكلاهما داخل مبنى قيادة المخابرات الروسية ، وهذه كارثة فى حد ذاتها ، فربما كان من السهل أن تضع رأسك بين فكى الأسد ، ولكن من العسير جدًا أن تخرجه سالمًا ، والله (سبحانه وتعالى) وحده يعلم ، كيف سيخرج (ن ـ ١) من موقف كهذا !!

ولو نظرنا إلى موقف الباقين ، فهو أشبه بالسقوط فى فوهة بركان ثائر ، إذ إن سقوطهم فى قبضة (المافيا) الروسية ، فى ظروف كهذه ، يعنى بداية لعذاب لامحدود له ..

وزفر مرة أخرى ، على نحو خُيِّل لنائبه معه أن النيران ستنطلق من بين شفتيه ، قبل أن يكمل :

ـ باختصار .. نحن أمام كارثة .. مصيبة ، لا أرى لها أى مخرج أو خلاص .

سأله نائبه فى اهتمام متوتر :

ـ وماذا يمكننا أن نفعل الآن يا سيِّدى ؟!

هزَّ المدير رأسه ، ومطَّ شفتيه ، قبل أن يغمغم فى مرارة :

ـ لست أدرى .

ثم مال إلى الأمام بغتة ، ليضيف فى حزم شديد :

ـ أخبر الرجال أننا سنعقد اجتماعًا عاجلاً فورًا ..

اتصل بهم جميعًا الآن .. أخبرهم أن الأمر غاية فى الخطورة .

وعاد يتراجع فى مقعده ، ويطلق زفرة مشتعلة ، مستطردًا :

ـ إننا نحتاج إلى عقولهم .. عقولهم جميعًا .

وكان على حق تمامًا فيما ذهب إليه ..

فكارثة كهذه تحتاج إلى عقول مفكرة ..

كل العقول ..

بلا استثناء ..

* * *

« سنهجم على محورين .. »

نطق الجنرال (كوليسكى) العبارة فى صرامة عصبية حاسمة ، عبر جهاز الاتصال اللاسلكى ، قبل أن يشير إلى رجاله بالاستعداد ، مكملاً :

ـ حجرة المدير لها مدخل واحد ، ونافذة كبيرة واحدة..

وسنهاجم من الاثنين فى لحظة واحدة .. أنا ورجالى سنقتحم المدخل ، وعليك أن تقتحم مع رجالك النافذة ، فور إشارتى .

مال عليه المدير ، قائلاً فى صرامة ، لم تخل بدورها من العصبية :

ـ أخبر مساعدك (ليبروسكى) أننى أريدهما على قيد الحياة .. وبأى ثمن .. لا أريد أية حماقات غير مبررة ، وسأحاسب من يخالف أوامرى هذه بمنتهى الشدة والحزم .

لم يرق هذا للجنرال (كوليسكى) ، الذى كان يتلهف على تحويل جسد (أدهم) وزميله إلى مصفاة ، فور اقتحام حجرة المدير ، إلا أنه كان مضطراً لطاعة الأوامر ، لذا فقد نقلها إلى (ليبروسكى) ، عبر جهاز الاتصال اللاسلكى ، قبل أن يسأل المدير فى عصبية زائدة :

ـ هل من أوامر أخرى ؟!

اعتدل المدير ، قائلاً فى صرامة :

ـ كلا .

التقط (كوليسكى) نفسًا عميقًا ، قبل أن يقول عبر جهاز الاتصال اللاسلكى ، فى صرامة حازمة :

ـ سنهجم معًا عند ثلاثة .. واحد .. اثنان ..

ثم أشار إلى رجاله باقتحام الحجرة ، صارخًا :

ـ ثلاثة ..

وكان التنسيق بديعًا ، دون أدنى شك ..

ففى لحظة واحدة ، اقتحم مع رجاله باب حجرة المدير ، التى تحطمت نافذتها فى عنف ، مع اقتحام (ليبروسكى) ورجاله لها ..

وبحركة عصبية غريزية ، وثب (علاء) من مكانه ، وتراجع متخذاً وقفة قتالية صارمة ، ولكن رجال العمليات الخاصة المسلحين ملئوا الحجرة فى لحظة واحدة ، وارتفعت فوهات مدافع بعضهم نحو وجهه فى تحفُّز شرس ، فى حين انقضَّ الآخرون على المدير ، الذى سحب مسدسه فى سرعة ، و ...

ولكن الرجال انقضوا عليه ، بكل عنف الدنيا ..

كانت الأوامر الصارمة الصادرة إليهم، تحتم عدم إطلاق النار، لذا فقد هوت كعوب ثلاثة مدافع آلية على معدته ورأسه، فى نفس اللحظة التى صوبت إليه فوهات أربعة مدافع أخرى، فى شراسة مخيفة ..

ووسط كل هؤلاء، اندفع (كواليسكى) نحوه، صارخًا:

ـ سقطت يا أسطورة الحمقى.

صاح به المدير فى غضب:

ـ هل جننت يا (كواليسكى)؟!

لم تكد صيحته تكتمل، حتى هوت قبضة (كواليسكى) على فكه كالقنبلة، وهذا الأخير يصرخ فى ثورة:

ـ اخرس.

سقط المدير أرضًا فى عنف، فوثب (كواليسكى) عبر مقعده المقلوب، وجذبه من سترته فى قسوة صائحًا:

ـ هل تصورت أننا من الحماقة، بحيث نسمح لك بدخول قلعتنا، والخروج منها بزميلك؟!

حاول الرجل أن يتكلم، ولكن الدماء التى ملأت فمه جعلته يسعل بشدة، قبل أن يبصقها على الأرض، صائحًا فى ألم:

ـ سأحاكمك عسكريًا، و ...

صرخ (كواليسكى) يقاطعه فى ثورة:

ـ أمازلت تصرّ على لعب الدور للنهاية؟!

ثم غرس أظفاره فى وجهه، مستطردًا فى عنف:

ـ هيا .. انزع قناعك السخيف هذا و ...

هو الذى بتر عبارته هذه المرة، مع صرخة الألم الحادة، التى انطلقت من بين شفتى المدير، والدماء التى سالت من وجهه، ومن بشرته الطبيعية ..

وللحظة، حدّق (كواليسكى) فيه بذهول مذعور، قبل أن يعتدل، ويستدير بكل هلعه وانفعاله إلى رجاله، صارخًا:

ـ أين الأسير؟!

أجابه أحدهم فى حذر :

ـ لقد اصطحبه سيادة المدير إلى مكان آمن .

صرخ (كواليسكى) ، بصوت رجل يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وهو يشير إلى الرجل الملقى أرضًا :

ـ هذا هو المدير الحقيقى أيها الأغبياء .

قالها ، ووثب نحو النافذة المكسورة ، التى تطل على الفناء الأمامى للمبنى ، تاركًا رجاله جميعهم ، وعلى رأسهم مساعده (ليبروسكى) ، وهم يحدقون فى المدير ، الذى عاملوه بكل هذا العنف منذ لحظات ، بمزيج من الذعر والذهول ..

وعبر النافذة ، شاهد (كواليسكى) مشهدًا كاد يصيبه بأزمة قلبية قاتلة ..

شاهد سيارة مدير المخابرات الروسية الخاصة ، ورجال البوابة يفسحون لها الطريق ، بناء على أوامره هو ، ويداخلها (علاء) ، والرجل الذى لعب أبرع أدواره ، وهو ينتحل شخصية مدير المخابرات ..

(أدهم) ..

(أدهم صبرى) ..

ولكن ماكاد يسقطه جثة هامدة بالفعل هو تلك اللحظة ، التى أدار فيها (أدهم) عينيه إليه ، وهو يحمل وجه المدير ، ثم ابتسم فى سخرية ، ولوّح بأصابعه مودّعًا ..

ولثوان ، وعلى الرغم من دقة الموقف وحساسيته ، تجمّد (كواليسكى) فى مكانه ، وعيناه تتابعان السيارة ، التى تنطلق مبتعدة ، عبر ساحة (الكرملين)(*)، فى ذهول مقهور ، لعشر ثوان كاملة ، قبل أن ينتفض جسده كله فى عنف ، ويصرخ فى رجاله كالمجنون :

ـ أوقفوه .. لاتسمحوا لهما بالفرار ، مهما كان الثمن .. هل تسمعون ؟! مهما كان الثمن ..

صرخته أيقظت الرجال من ذهولهم المذعور ، فصاح (ليبروسكى) ، وهو يندفع خارج الحجرة :

ـ اتبعونى .

(*) فى (روسيا) يحتل المبنى الرئيسى للمخابرات الروسية مكانه ، وسط الساحة الرئيسية لمقر الحكم (الكرملين) ، وهذا منذ قيام الثورة البلشفية (١٩١٧م) ، ومنشأ جهاز المخابرات السوفيتى .

انطلق الكل يعدون كالمجانين ، فى حين نهض مدير المخابرات الروسى ، صائحًا بكل غضب الدنيا :

ـ ستدفع الثمن يا (كواليسكى) .. أقسم أن تدفع الثمن غاليًا .

هتف به (كواليسكى) ، فى عصبية ثائرة :

ـ فيما بعد .. سنؤجل هذا لما بعد .

ثم ضغط زر جهاز الاتصال اللاسلكى ، صائحًا فى صرامة ، تحمل نفس العصبية :

ـ إلى كل الوحدات .. المصرى المطلوب ينتحل شخصية مدير المخابرات ، ويستقل سيارته ، التى تحمل رقم (....) .. أوقفوه بأى ثمن .. انسفوا السيارة لو اقتضى الأمر ، ولكن لا تسمحوا له أو لمرافقه بالفرار قط .

فى نفس اللحظة ، التى انتقلت فيها صيحته ، إلى كل رجل أمن فى (موسكو) ، كان (أدهم) ينحرف بسيارة المدير فى شارع صغير ، ثم يثب خارجها ، هاتفًا بـ (علاء) :

ـ أسرع يا رجل .. أسرع .

تبعه (علاء) ، هاتفًا :

ـ ما فعلته كان مذهلاً يا سيدى .. أنا نفسى لم أدرك الحقيقة ، حتى اصطحبتنى خارج الحجرة .

هتف به (أدهم) ، وهو ينحرف فى شارع آخر :

ـ ما فعلته اعتمد بالدرجة الأولى على العوامل النفسية ، بأكثر مما اعتمد على البراعة .

ابتسم (علاء) ، وهو يهتف بانبهار :

ـ ليس هذا مجال التواضع يا سيدى :

هتف (أدهم) فى حزم :

ـ وليس مجال المناقشة أيضًا .

فى تلك اللحظة فقط ، لمح (علاء) تلك السيارة الصغيرة روسية الصنع ، التى تجلس داخلها (منى) ، والتى هتفت فور رؤيتهما :

ـ حمدًا لله .. حمدًا لله .

ابتسمت (منى) ، قائلة :

ـ هل تنتظر جوابًا ؟!

هزّ رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ كلاّ بالتأكيد .

لم يكد ينطقها ، حتى انعقد حاجبا (أدهم) ، وهو يقول فى حزم :

ـ استعدا للمواجهة الحقيقية .

انتبه (علاء) و(منى) ، فى تلك اللحظة فحسب ، إلى قوة الأمن الخاصة ، التى تسدّ الطريق أمامهم ، وإلى المدافع الآلية المصوّبة إلى السيارة فى تحفّز تام ..

لقد كان (أدهم) على حق ..

إنها المواجهة ..

الحقيقية .

* * *

٢ـ الذئاب ..

انطلقت ضحكة (يورى إيفانوفيتش) ظافرة ، عالية ، مجلجلة ، مدوية ، تموج بالثقة والنصر ، وهو يربّت على ظهر خبير الاتصالات الفنلندى العبقرى (فيليب أندرسن) ، هاتفًا :

ـ رائع يا رجل .. رائع .. لقد أثبت أنك تستحق كل سنت حصلت عليه .. لقد أوقعناهم جميعًا بضربة واحدة .

تنحنح الضخم (أيجور) ، وهو يقول :

ـ ليسوا جميعًا أيها الزعيم .

وقال (أندرسن) فى عصبية :

ـ وأنا لم أحصل على أجرى كاملاً بعد .

رمق (يورى) (أيجور) بنظرة نارية ، قبل أن يقول للخبير الفنلندى بابتسامة شبيهة بابتسامة ذئب :

- ستحصل عليه يارجل .. ستحصل عليه بالتأكيد .

ثم أشعل سيجارته فى بطء ، قبل أن يضيف فى صرامة :

- بعد أن نوقع بالباقين .

تضاعفت عصبية (أندرسن) ، وهو يقول :

- مهمتى كانت أن أتعقَّب اتصالاتهم ، وأحدِّد موقعهم بدقة ، ولقد أديت عملى كاملاً ، وناجحًا .

مال (يورى) نحوه ، ونفث دخان سيجارته ، ذا الرائحة النفاذة فى وجهه ، قائلاً :

- ولكن المعركة لم تنته بعد يارجل .

سعل (أندرسن) فى قوة ، وضرب الهواء بكفه ، وهو يشيح بوجهه بعيدًا عن دخان سيجارة (يورى) ، هاتفًا :

- إنها معرككم ، وليست معركتى .

زمجر (يورى) فى صرامة وحشية ، قبل أن يقول فى غلظة :

- إنها معركة الجميع ، حتى تضع أوزارها يارجل .. ومادامت الأمور لم تتحسم بعد ، فلا يمكننا الجزم بما سيفعلونه فى المرحلة القادمة ، وهذا يحتم أن تبقى كل أسلحتنا مستعدة .

ثم ابتسم فجأة ، ليربّت على ظهر الخبير فى مرح ، مضيفًا :

- وأنت أحد أقوى أسلحتنا .

تطلّع إليه الفنلندى لحظة بتوتر قلق ، ثم انتبه بغتة إلى طبيعته العقلية غير المستقرة ، فزفر فى توتر ، متمتمًا :

- فليكن ياسيّد (يورى) ، ولكن هذا سيكلّفك أجرًا إضافيًا .

قهقه (يورى) ضاحكًا ، وهو يلوّح بسيجارته ، قائلاً :

- لو أن هذه هى المشكلة ، فقرّ عينًا يارجل .. ستحصل على أكثر مما تريد ، عندما تنتهى المعركة لصالحنا .

مط الخبير شفتيه ، وأشاح بوجهه مرة أخرى ، فربت (يورى) على كتفه ، ثم التفت إلى (أيجور) ، قائلاً فى صرامة :

- اصطحب خبيرنا العبقرى إلى جناحه ، وتأكد من حصوله على أفضل عناية ممكنة .

ثم ابتسم ابتسامة ذئبية ، لم ترق للخبير قط ، وهو يضيف :

- حتى نحتاج إلى خدماته .

قالها ، وجلس فى هدوء على مقعد هزاز ، وراح ينفث دخان سيجارته بابتسامة كبيرة ، مراقبًا (أيجور) ، وهو يصطحب الخبير خارجًا ، ولم يكد الباب يُغلق خلفهما ، حتى قالت (زوشا) بابتسامة متوترة :

- إنك لم تترك له الخيار .

قال فى صرامة :

- هذا ما ينبغى أن يكون عليه كل من يتعامل مع (يورى إيفانوفيتش) .

غمغمت فى ضيق :

- بالتأكيد .

وبحركة آلية ، وكوسيلة لتبديد توترها الزائد ، التقطت (زوشا) قضيبًا حديديًّا ثقيلاً ، وراحت تدرِّب به عضلات ساعديها ، وهى تسأله :

- ماذا ستفعل بالمصريين ؟!

نفث دخان سيجارته فى بطء وعمق ، ثم أبعد السيجارة ، وراح يتطلع إلى طرفها المشتعل بضع لحظات ، قبل أن يجيب فى هدوء عجيب :

- فى الوقت الحالى ، سأحتفظ بهم فحسب .

سألته فى توتر :

- وماذا عن فيما بعد ؟!

أجابها فى صرامة :

- ما بعد لما بعد .

أرادت أن تطرح سؤالاً آخر ، لكن هاتفه المحمول

انطلق فى تلك اللحظة . فاكتفت بمط شفتيها فى سخط ، فى حين التقط هو هاتفه ، ورفعه إلى أذنه ، قائلاً فى صرامة مترقبة :

- (يورى) .

أدركت (زوشا) على الفور أن المتحدث ينقل إليه أخبارًا غاية فى الخطورة ، عندما انعقد حاجباه فى شدة ، واندفع نصفه الأعلى إلى الأمام فى عنف ، وهو يهتف :

- ماذا ؟!

كل ذرة فى كيانها اشتعلت فضولاً ولهفة ، وهى تتطلع إليه ، فى حين راح هو يستمع إلى محدثه فى اهتمام شديد ، قبل أن يقول فى صرامة :

- فليكن .. سنتولى دورنا فى الأمر .

ولم يكد ينهى المحادثة ، حتى سألته (زوشا) ، بكل لهفة الدنيا :

- ماذا حدث ؟!

تطلع إليها فى صمت لدقائق كاملة ، وكأنما يستوعب الأمر كله ، قبل أن يقول فى حيرة ، وكأنه لا يصدق ماسمعه منذ قليل :

- ذلك المصرى خدع المخابرات الروسية كلها ، فى عقر دارها .

اتسعت عيناها عن آخرهما ، وهى تهتف فى ذهول :

- كيف ؟!

لم يبد أنه قد سمعها ، وهو ينفث دخان سيجارته فى بطء شديد ، ويراقب سحب الدخان فى صمت ، ثم قال فجأة ، فى لهجة حملت نبرة غضب واضحة :

- هؤلاء الأغبياء لايصلحون لمواجهة عبقرى مثله .

والتفت إليها ، مضيفاً بجذل مباغت عجيب :

- إنه يحتاج إلى عبقرى مثلى .

سألته فى لهفة شديدة :

- كيف خدعهم يا (يورى) ؟! كيف ؟!

بدت عليه علامات التفكير العميق ، وهو يلقى سيجارته بعيدًا ، ثم يشعل أخرى ، وينفث دخانها ، قائلاً ، على نحو يوحى بأنه يحدث نفسه :

ـ المهم هو ما الذى سيفعله الآن .. إنه محترف ، ويعلم أن ما فعله سيثير جنون كل رجل أمن ، ليس فى (موسكو) وحدها ، ولكن فى (روسيا) كلها .

سألته مرة أخرى فى استماتة :

ـ كيف خدعهم ؟!

نهض من مقعده فى حركة حادة ، وهو يتابع حديثه لنفسه ، على نحو يؤكد أنه حتى لم يسمعها ، مغمغمًا :

ـ إنه عبقرى فى التنكر .. هذه واحدة من أبرز سماته .. نعم .. هذا أبرع ما يمكن أن يفعله الآن .

صاحت به (زوشا) ، وقد نفد صبرها :

ـ ما الذى فعله بهم هذا المصرى يا (يورى) ؟!

استدار إليها بحدة وثورة رهيبتين ، صارخًا :

ـ اصمتى .

تراجعت كالمصعوقة ، وانخفض صوتها دفعة واحدة ، وهى تتمتم :

ـ كنت فقط أسأل لو أن ...

لم تتم سؤالها ..

بل ولم تحاول حتى هذا ..

ثم إنه لم يمنحها فرصة واحدة ..

لقد صرخ فى وجهها ، ثم التقط هاتفه المحمول ، وضغط أزراره فى سرعة ، ثم قال فى حزم عصبى :

ـ إنه أنا .. (يورى) .. اسمعنى جيدًا يارجل .. أعلم ما حدث .. لقد بلغتنى الأخبار .. لاشأن لك بكيفية معرفتى .. اصمت واستمع إلىّ جيدًا .

ثم تألقت عيناه ، وهو يضيف فى صرامة :

ـ إننى أعرف ما الذى سيفعله المصرى ، فى المرحلة القادمة ..

والعجيب أنها كانت واحدة من ألمع لمحات العبقرية ، ربما فى تاريخه كله ..

فالمدهش ، بل والمذهل أنه قد استنتج بالفعل خطوة (أدهم) التالية ..

وبمنتهى الدقة ..

* * *

بكل صرامة وتوتر الدنيا ، استوقف رجل الأمن الروسى تلك السيارة الصغيرة ، وأشار إلى رجاله ، الذين أسرعوا يحيطون بها بمدافعهم الآلية فى تحفز ، فأطلّ (أدهم) من نافذتها ، وهو يقول فى لهجة صارمة ، تحمل رنة غضب متقنة :

- ماذا أصابك يا رجل ؟! ألم تعرفنى ؟! أنا الذى أصدرت أوامر الإيقاف هذه .

الصوت المميز ، والوجه المطل عليه ، جعلا رجل الأمن الروسى يرتبك ، وهو يقول :

- جنرال (كواليسكى) ؟! معذرة يا سيدى .. الواقع أننى ..

صاح به (أدهم) ، يقاطعه بنفس اللهجة الصارمة الغاضبة :

- مر رجالك بإفساح الطريق .. هيا ليس لدى وقت أضيعه .

تراجع رجل الأمن بحركة سريعة ، ليفسح الطريق أمام السيارة الصغيرة ، وهم بإلقاء أوامره إلى رجاله لكى يحذوا حذوه ، لولا أن ارتفع رنين جهاز الاتصال الرقمى الرسمى الذى يحمله ، بنغمة خاصة ، تعنى أن الاتصال لأمر بالغ الأهمية والخطورة ، فالتقط الجهاز فى سرعة ، وقال فى توتر شديد :

- الضابط (زودياك) .. قائد الـ ...

قاطعه صوت مألوف للغاية ، يصرخ فى صرامة منفعلة :

- اسمعنى جيدًا يا (زودياك) .. أنا الجنرال (كواليسكى) .. (جوزيف كواليسكى) ..

اتسعت عينا الضابط فى ذهول ، وهو يحدق فى (أدهم) الجالس خلف عجلة قيادة السيارة الصغيرة ، هاتفًا :

ـ من ؟!

(أدهم) أدرك مايعنيه ذلك الهتاف ، وماتفصح عنه تلك النظرة الذاهلة على الفور ..

و(كواليسكى) أيضًا أدرك سر ذهول الضابط ، فصرخ :

ـ ألق القبض فورًا على أى شخص ينتحل شخصيتى .. هل تسمعنى ؟ افعلها يا رجل دون تردُّد .. افعلها فورًا .

وقبل حتى أن تكتمل صرخته ، كان (أدهم) يضغط دواسة الوقود ، ويثب بالسيارة الصغيرة إلى الأمام ، منطلقًا بها بأقصى سرعة ..

كانت مبادرة مباغتة ، ولكن رجال الأمن المدربين استداروا فى سرعة ، وانطلقت رصاصات مدافعهم الآلية نحو السيارة الصغيرة ، وضابطهم يصرخ فى انفعال جارف :

ـ أوقفوهم .. أوقفوهم بأى ثمن .

نسفت رصاصات الجنود زجاج السيارة الصغيرة الخلفى ، وهى تنطلق كالصاروخ ، فحنت (منى) رأسها بحركة غريزية ، وهى تهتف :

ـ ولكن كيف ؟! كيف عرفوا ؟!

فتح (أدهم) درج تابلوه السيارة أمامه ، والتقط منه مسدسًا ، ألقاه إلى (علاء) ، وهو يجيبها فى توتر :

ـ (كواليسكى) الحقيقى أدرك اللعبة بوسيلة ما .

لم يكن الأمر بحاجة إلى كلمة واحدة ، ليدرك (علاء) المهمة ، التى أسندها إليه (أدهم) ، فالتقط المسدس فى رشاقة ، واستدار إلى النافذة الخلفية المحطَّمة ، فى حين هتفت (منى) فى عصبية ، وهى تلتقط من حقيبتها مسدسًا آخر :

ـ من المستحيل أن يستنتج ما ستقدم عليه .

أجابها (أدهم) ، وهو يتطلَّع إلى مرآة السيارة

الجانبية ، التى نقلت إليه مشهد ثلاث سيارت شرطة قوية ، انطلقت لمطاردة السيارة الصغيرة فى شراسة :

ـ بالنسبة للجنرال (كواليسكى) ، أنت على حق ، فطوال عمله فى جهاز المخابرات السوفيتى السابق ، والروسى الحالى ، لم يبد لمحة واحدة من العبقرية ..

ثم انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يضيف فى صرامة :

ـ ولكن من الواضح أن هناك عقلاً آخر وراء كل هذا .. عقلاً أكثر عبقرية مما ينبغى .

قالها ، ثم انحرف فجأة بحركة حادة ، أفقدت (علاء) توازنه ، فهتف :

ـ مهلاً ياسيادة العميد .. كدت أسقط خارج السيارة .

انحرف (أدهم) بالسيارة مرة أخرى ، على نحو أكثر حدة ، وهو يقول فى صرامة :

ـ تشبث جيدًا أيها النقيب ، فالأمر لايحتمل التهاون .. أنت تعلم أن سياراتهم أكثر قوة .

اعتدل (علاء) ، وهو يسأل فى حزم :

ـ هل أطلق النار مباشرة ؟!

انعقد حاجبا (أدهم) ، وهو يقول بكل صرامة :

ـ للضرورة القصوى .

كانت سيارات الشرطة الثلاث أكثر قوة بالفعل ، وهى تنهب الأرض نهبًا ، خلف السيارة الصغيرة ، التى استعاض (أدهم) بمهارته عن ضعفها ، فراح ينحرف بها فى شوارع جانبية صغيرة ، فى سرعة مخيفة ، بحيث يربك مطارديه ..

ولكنه كان يدرك أن هذا لن يفلح لوقت طويل ..

رجال الأمن سيجرون اتصالاتهم ببعضهم ، وسيرسم رؤساؤهم خريطة للموقف كله ، ولن تمضى دقائق ، حتى يتم إغلاق كل الطرقات الرئيسية والفرعية ، بحيث لا تعود أمامهم فرصة للإفلات ..

وهذا يعنى أن مواصلة المطاردة أمر أشبه بالانتحار ..

بل هى الانتحار ذاته ..

لذا فقد انحرف بالسيارة مرة ثالثة ..

ورابعة ..

وخامسة ..

ثم توقف بغتة ، عند مدخل شارع ضيق ، وهو يستدير إلى (منى) و(علاء) ، قائلاً فى صرامة آمرة :

ـ اهبطا .

التفت إليه (علاء) فى دهشة ، فى حين سألته (منى) فى عصبية :

ـ هل تتخلص منا ؟!

أجابها فى صرامة أكثر :

ـ فرصة ثلاثة فى النجاة من هذا الموقف مستحيلة !

هتفت فى عناد :

ـ ثلاثة أفضل من واحد .

قال بلهجة آمرة عنيفة :

ـ ليس فى هذه الظروف .

ترددت لحظة ، ولكن (علاء) جذبها من ذراعها ، وهو يغادر السيارة ، قائلاً :

ـ هيا يا سيادة المقدم .. ما تعلمناه يحتم طاعة الأوامر دون مناقشة ، فى مثل هذه الظروف .

قال (أدهم) فى صرامة شديدة :

ـ خاصة أن سيارات الأمن ستظهر ، خلال عشر ثوان على الأكثر .

تطلعت إليه بعينين دامعتين ، فكرر فى صرامة رهيبة :

ـ هيا أيتها المقدم .

غادرت السيارة مع (علاء) ، وقلبها يرتجف بين ضلوعها فى عنف ، فى حين قال (أدهم) فى حزم صارم :

ـ اختفيا جيدًا .. لا أريدهم أن يدركوا ما فعلناه .



جذبها (علاء) إلى ركن مظلم ، وهو يمسك مسدسه فى تحفز ..

ثم أدار عينيه إلى (علاء) ، مضيفًا :

- دافع عنها بحياتك .

شدّ (علاء) قامته ، وهو يقول فى حزم :

- اطمئن ياسيّدى .

ضغط (أدهم) دوّاسة الوقود مرة أخرى ، دون أن يلقى عليهما نظرة أخرى ، فارتجف قلب (منى) بين ضلوعها ، وهى تقول :

- رباه ! سيواجههم وحده .

جذبها (علاء) إلى ركن مظلم ، وهو يمسك مسدسه فى تحفز ، قائلاً :

- الأستاذ يعرف دومًا ما ينبغى فعله .

قبل حتى أن تكتمل عبارته ، انطلقت سيارات الأمن الروسية الثلاث ، أمام ذلك الشارع الضيق ، وهى تواصل مطاردتها للسيارة الصغيرة ، فارتجف قلب (منى) مرة أخرى بين ضلوعها ، وهى تهتف :

- ساعده يا إلهى ! ساعده .

أما (أدهم) ، فقد شعر بالارتياح أكثر ، وهو ينطلق بالسيارة الصغيرة وحده ، بأقصى سرعة ممكنة ، وسط شوارع (موسكو) ، على الرغم من سيارات الأمن الثلاث القوية ، التى تطارده فى استماتة ..

وعلى الرغم من مهاراته المدهشة فى القيادة ، وقدرته على المراوغة والمناورة ، إلا أن المسافة بينه وبين السيارات الثلاث راحت تنكمش ..

وتنكمش ..

وتنكمش ..

وبدا من الواضح أن السيارة الروسية الصغيرة لن تصمد أبدًا ، أمام مطاردة شرسة كهذه ..

مهما كانت براعة قائدها ..

خاصة أن أكمنة الشرطة قد بدأت تلوح فى نهاية الطريق ، معلنة أن كل الطرق ستصبح مسدودة ، فى وجه السيارة الصغيرة ..

لذا ، فقد انحرف (أدهم) بحركة مباغتة ، فى طريق جانبى صغير ، وأطلقت إطارات السيارة الصغيرة صريرًا عنيفًا ، وهى تميل إلى اليسار على نحو مخيف ، يوحى بأنها ستنقلب على جانبها ..

هذا ما تصوَّرته السيارات المطاردة ، التى بلغ عددها ست سيارات ، عند هذه البقعة ..

ولكن السيارة الصغيرة استعادت توازنها وتماسكها فى سرعة ، وهى تثب مرة أخرى إلى الأمام ، ثم تندفع داخل الطريق الصغير ، على نحو مباشر ..

وبصرير أكثر عنفًا ، انحرفت سيارات الأمن الست خلف السيارة الصغيرة ، ورأوها تندفع بأقصى سرعتها ، نحو ذلك الكمين الفرعى ، فى نهاية الطريق ، وكأنها لاتبالى بوجوده ، فهتف قائد إحدى سيارات الأمن فى دهشة عصبية :

- ما الذى يفعله هذا المجنون ؟!

ولكن السيارة الصغيرة واصلت انطلاقها بأقصى

سرعتها ، على الرغم من وضوح استحالة تجاوزها لتلك الحواجز الفولاذية القوية .

وانطلقت ..

وانطلقت ..

ثم صرخ قائد سيارة أمن أخرى فى ارتياع :

ـ مستحيل ! إنه ..

قبل أن يتمّ عبارته ، ارتطمت السيّارة الصغيرة بالحاجز الفولاذى فى المنتصف ، وانطلقت رصاصات رجال الشرطة نحوها ، وهى تثب عاليًا ، وتطير فى الهواء ، وأجزاء من مقدمتها تتحطّم فى شدة ، قبل أن تهوى أرضًا فى قوة ، و ...

وتنفجر ..

وبمنتهى العنف ..

* * *

من المؤكّد أن ذلك الاجتماع العاجل ، الذى تمّ فى

تلك الساعة ، فى مبنى المخابرات العامة المصرية ، كان واحدًا من أكثر الاجتماعات توترًا ، فى تاريخ المخابرات المصرية كله ..

فمع أوّل دقيقة منه ، علم الكل بخبر الكارثة ..

خبر وجود (أدهم) داخل مبنى المخابرات الروسية ، منتحلاً شخصية مديرها ، وسقوط معظم الباقين فى قبضة منظمة (المافيا) الوحشية هناك ..

وفى عصبية ، قال أحدهم :

ـ الواقع أن العميد (أدهم) يتجاوز أحيانًا كل القواعد والأعراف ، على نحو سافر مستفز .

تراجع المدير فى مقعده ، قائلاً :

ـ كلنا كنا نعلم أن (ن ـ ١) سيقوم حتمًا بمحاولة لإنقاذ النقيب (علاء) .

قال رجل آخر فى ضيق :

ـ كل من يقرأ ملف (أدهم) ، يمكنه استنتاج هذا

بسهولة ، وهذا ينطبق على الخصوم أيضًا ، وهى نقطة ضعف بالغة الخطورة .

واندفع آخر يضيف :

ـ وتعنى أنهم سيكونون فى انتظاره دومًا .

أشار المدير بيده ، قائلاً :

ـ (ن ـ ١) أيضًا يعلم هذا ، وهو يحسن استغلاله فى كل مرة .

قال آخر فى توتر :

ـ المثل يقول : «ليس فى كل مرة تسلم الجرة .»

اعتدل المدير ، وهو يقول فى حزم :

ـ (ن ـ ١) لن يضع قدمه داخل المبنى القيادى للمخابرات الروسية ، دون أن تكون لديه خطة متقنة للخروج منه .

أشار أحد الرجال بيده ، قائلاً :

ـ المشكلة لا تكمن فى نجاحه أو فشله ، فى تنفيذ

عمليته الانتحارية المعقّدة هذه ، ففى الحالتين سيستفز الموقف رجال المخابرات الروسية ومديرهم ، وربما رئيس جمهوريتهم أيضًا بشدة ، مما يعنى خللاً رهيبًا فى علاقتنا بهم ، على المستوى الأمنى ، والدبلوماسى أيضًا .

قال المدير بلهجة حاسمة :

ـ دع هذه المشكلة للدبلوماسيين ، أما نحن فعلينا تحليل الموقف ، ومعرفة ماينبغى أن نفعله بشأنه ، فمن وجهة نظرى أنا ، يحتلّ وجود (ن ـ ١) داخل مبنى المخابرات الروسية المرتبة الثانية ؛ نظرًا لثقتى ـ من خبراتى السابقة ـ فى أنه سيجد مخرجًا من هذا ، بإذن الله (سبحانه وتعالى) ورعايته بالطبع ، أما المرتبة الأولى ، فهى تلك الخاصة بسقوط أربعة من أفضل عناصر (مصر) ، فى قبضة منظمة وحشية ، لاتعرف العقل أو المنطق .. منظمة وضعت يدها على الدكتور (أحمد صبرى) شقيق (ن ـ ١) ، والمرشح لنيل جائزة (نوبل) فى الطب ، و(قدرى)

أشهر وأبرع خبراء التزييف والتزوير والوثائق ، والملازم أول (ريهام) ، خبيرة المتفجرات الأولى ، فى مجال استقاء السلاح من البيئة ، وعبقرى الكمبيوتر (شريف) .. سقوط هؤلاء الأربعة يعد كارثة قومية بكل المقاييس ، ولابد أن نبذل كل جهد ممكن ، أو حتى غير ممكن ، لإنقاذهم من هذا الأسر الرهيب .

قال أحد من تحدثوا سابقًا فى حنق :

- المشكلة أن سيادة العميد (أدهم) سيهب لإنقاذهم أيضًا ، وربما كان هذا هو السبب الرئيسى لاختطافهم ، حتى يندفع هو إليهم ، و ...

قاطعه المدير فى صرامة :

- لو أن (ن - ١) بهذه السذاجة ، لما بقى لنتحدث عنه الآن ، بعد أن واجه كل أجهزة المخابرات القوية ، وكل منظمات التجسس والإجرام فى العالم .

تبادل الرجال نظرة متوترة ، قبل أن يقول أحدهم فى حزم :

- معذرة يا سيادة المدير .. نحن نعلم كم تؤمن بالعميد (أدهم) وقدراته الفذة ، ولكننا نتحدث الآن عن رجل آخر .

انعقد حاجبا المدير ، وهو يتراجع فى مقعده ، فتابع الرجل فى حزم أكثر :

- نتحدث عن رجل استيقظ منذ ساعات قليلة ، من غيبوبة عميقة ، أصيب بها إثر انهيار جسدى عام ، نتيجة لإجهاد مستمر ، ونشاط متواصل ، وإصابات لا حصر لها .. بمعنى أدق ، نحن نتحدث عن رجل لم يعد فى كامل لياقته ، ذهنيًا أو بدنيًا .. رجل من الخطأ أن نتعامل معه بحسابات وقواعد الماضى .

ازداد انعقاد حاجبى المدير ، وهو يستمع إلى رجل المخابرات ، الذى بدا رأيه مقنعًا ومنطقيًا إلى حد كبير ، و ...

وفجأة ، ظهر السكرتير الخاص للمدير ، على عتبة حجرة الاجتماعات الخاصة ، وهو يحمل ورقة مطوية ، ووجهًا شاحبًا زائغ البصر ..

ولأن دخول أى شخص ، أيًا كان ، إلى الحجرة الرئيسية ، فى أثناء اجتماع خاص كهذا ، هو أمر محظور ، إلا للضرورة القصوى ، فقد استدارت العيون كلها إلى الرجل ، فى حين بدا التوتر الشديد على وجه المدير ، وهو يشير إليه ..

وفى خطوات سريعة واسعة ، قطع الرجل المسافة ، التى تفصله عن مقعد مدير المخابرات ، وانحنى يهمس بكلمة فى أذن هذا الأخير ، قبل أن يسلمه الورقة ، ثم يتراجع ، ويغادر المكان بنفس الخطوات الواسعة السريعة ..

وفى توتر ملحوظ ، فضّ المدير الورقة ، والعيون كلها تتطلّع إليه فى فضول ولهفة ، و ...

وانعقد حاجبا المدير مرة أخرى فى عنف ..

وقبضت أصابعه على الورقة بحركة آلية ..

وتحرك جسده حركة توحى بالتوتر والصدمة ..

وسرت قشعريرة باردة فى أجساد الرجال ..

كل الرجال ..

ثم أغلق المدير عينيه فى قوة ..

وعضّ شفته السفلى فى مرارة ، قبل أن يفتح عينيه مرة أخرى ، ويتطلّع إلى الرجال بنظرة آسفة حزينة ، ثم يلوّح بالورقة ، قائلاً فى مرارة :

- أخبار غير سارة من (موسكو) أيها السادة .

لم ينبس أيهم بحرف واحد ، وإن حملت عيونهم كل قلق وتوتر الدنيا ، وهم يتطلّعون إلى المدير ، الذى تابع فى أسى :

- لقد فقدنا رجل مخابرات غير تقليدى .

وعض شفته مرة أخرى ، مضيفًا :

- إلى الأبد .

واتسعت عيونهم عن آخرها ، وقد حملت لهم تلك البرقية ، الواردة من (موسكو) ، رائحة قوية مألوفة ومخيفة ..

رائحة الموت .

* * *

٣ - الدماء ..

التقط (علاء) يد (منى) ، ليعاونها على الوثب ، من أحد الأسطح إلى آخر ، فى قلب (موسكو) ، وهو يقول لاهثًا :

- مازالت أمامنا مسافة كبيرة ، قبل أن نبلغ ذلك المنزل الآمن ، وأنت تعلمين استحالة السير فى الطرقات ، فى ظل هذا الحصار الأمنى .

أجابته فى توتر :

- أعلم هذا .

ثم اكتسى صوتها بنبرة صارمة ، وهى تضيف :

- حاول ألا تنسى أننى الأكثر خبرة ، والأكبر رتبة هنا .

غمغم :

- بالتأكيد ..

كان يعلم تمامًا أنها على حق ، فى كونها الضابط الأعلى رتبة ، إلا أن طبيعته الشرقية كانت تفرض عليه النظر إليها كامرأة ، بأكثر مما هى ضابط مخابرات ..

امرأة لابد له من حمايتها ، والذود عنها .. بل والموت فى سبيل هذا ، كما أمره أستاذه وقائده (أدهم صبرى) ..

وهذا التناقض كان يرهقه دومًا ، منذ التحق بفريق (أدهم) الخاص ، ومنذ بدأ عمله مع الملازم أول (ريهام) ، خبيرة المتفجرات بالفريق ..

فهو يدرك جيدًا أنها ضابط مخابرات ، وخبيرة لايشق لها غبار فى مضمارها ، وعلى الرغم من هذا ، ففى جزء من أعماقه ، كان دومًا يسعى لحمايتها كأنثى ..

والآن ، وهو يبذل قصارى جهده ، مع المقدم (منى توفيق) ، لبلوغ ذلك المنزل الآمن ، على الرغم من كل ما يملأ (موسكو) من مخاطر ، وما يحيط بها من حصار أمنى محكم ، كان من العسير عليه أن يهضم وجودها فى مركز قيادى ..

ولكن كان عليه أن يصنع الموازنة بين الأمرين ..

وبمنتهى الدقة ..

أن يتعامل معها كضابط يفوقه رتبة ..

وأن يحميها ويذود عنها فى الوقت ذاته ..

وكان هذا مرهقًا ..

وبشدة ..

ودون أن يتبادلا كلمات أخرى ، راحا يعدوان ، فوق أسطح المنازل ، فى ذلك الحى الروسى القديم ، و ...

وفجأة ، ظهرت تلك الهليكوبتر ..

لم تكن هليكوبتر تابعة لأية جهة أمنية ، وعلى الرغم من هذا فقد برزت فجأة ، من خلف منزل بعيد ، ثم اتجهت نحوهما مباشرة ، وكأنهما هدفها الأول ..

وتوقف (علاء) دفعة واحدة ، وسرى توتر عنيف فى جسده ، وهو يقبض على مسدسه فى قوة ، ويقول لـ (منى) فى صرامة ، لاتتفق مع فارق الرتب بينهما :

ـ توقفى .

لهثت فى إرهاق وانفعال ، وهى تلتقط مسدسها بدورها ، قائلة :

ـ إنها تنشدنا .

تلفت حوله فى سرعة ، بحثًا عن منفذ واحد للفرار ، قبل أن يغمغم فى عصبية :

ـ لن يجدونا فريسة سهلة .

غمغمت ، وكلماتها تشف عن ذلك التوتر العنيف فى أعماقها :

ـ بالتأكيد .

تحفز كلاهما لمواجهة تلك الهليكوبتر ، التى اتجهت نحوهما مباشرة ، وحلقت فوق رأسيهما ، ثم ابتعدت لاتلوى على شىء ، فتمتم (علاء) فى توتر :

ـ عجبًا ! تصورت أنها ...

قاطعته (منى) فى حزم ، وبصرها يتابع الهليكوبتر ،

التى دارت دورة واسعة ، قبل أن تتجه إليهما مرة أخرى :

- إنها كذلك !

فى نفس اللحظة ، التى نطقت فيها كلمتها ، كان ذلك الضخم (أيجور) ، يهتف عبر جهاز الاتصال اللاسلكى ، داخل تلك الهليكوبتر :

- إنك عبقرى بالفعل أيها الزعيم .. لقد تتبعنا المسار ، بين ذلك المنزل ، الذى عثرنا فيه على الرجلين ، ومنطقة انفجار السيارة الصغيرة ، فعثرنا بالفعل على الشاب والمرأة .. كيف أمكنك معرفة هذا ؟

أجابه (يورى) ، وهو ينفث دخان سيجارته القصيرة ، ويتأرجح على مقعده الهزّاز المفضّل ، فى قبو دار المحفوظات القديمة ، فى قلب (موسكو) :

- لو أنك تمتلك لمحة من عبقريتى ، لبدا لك هذا أمرًا منطقيًا يارجل ؛ فالمصرى لن يخاطر بآخرين ، فى مطاردة يدرك حتمية خسارتها ، والانفصال كان حتميًا ..

هتف (أيجور) فى انبهار :

- إنها عبقرية مدهشة .

ثم سأله فى اهتمام :

- والآن ماذا نفعل ؟! هل نهاجمهما ؟!

أجابه (يورى) فى صرامة :

- كلاً .. اكتف بجذب انتباههما إليك فحسب .

ثم نفث دخان سيجارته فى عمق أكثر ، قبل أن يضيف ، فى شىء من الجذل :

- (زوشا) والباقون سيتولون أمرهما .

غمغم (أيجور) ، فى لهجة تحمل رنة سخط ، وكأنما لايروق له ألا يشارك فى عمل كهذا :

- فليكن .

قالها ، وأشار للطيّار فى صرامة ، فدار هذا الأخير دورة أخرى ، قائلاً فى ضجر :

- هل سنكتفى بالطيران فى دوائر ؟!

زمجر (أيجور) ، قائلاً فى خشونة :

- أطع الأوامر فحسب .

فى تلك اللحظة ، كان (علاء) و(منى) يتابعان دورات الهليوكوبتر فى قلق متوتر ، و(علاء) يغمغم :

- لو أنها هنا من أجلنا ، فما الذى تفعله بالضبط ؟!

أجابته ، وهى تلهث انفعالاً :

- ربما تنتظر أمرًا بالهجوم أو ...

انعقد حاجباها فى شدة ، وهى تضيف :

- أو أن مهمتها هى تشتيت انتباهنا فحسب .

قالتها ، ثم استدارت بحركة سريعة ، نحو الهليكوبتر الثانية ، المزوّدة بكاتم لصوت محركاتها ، والتى انقضت من خلفهما ، مستغلة انشغالهما بمراقبة الأولى ، وهتفت وهى ترفع مسدسها :

- احترس .

ومع أول حروف هتافها ، وثب المقاتلون من الهليكوبتر الثانية ..

أربعة رجال ، تقودهم (زوشا) ، الحارسة الخاصة لزعيم (المافيا) الروسية ..

والخمسة يرتدون صديريات واقية من الرصاص ، ويحملون مسدسات آلية قوية ، و ...

وعامل المفاجأة ..

وقبل حتى أن يستدير (علاء) ، لمواجهة الموقف ، بدأ القتال ..

الرجال الأربعة انقضوا على (علاء) ..

و (زوشا) وحدها هاجمت (منى) ..

وبمنتهى العنف ..

وعلى الرغم من المباغتة ، أطلق (علاء) رصاصة من مسدسه ، اخترقت فخذ أحد الرجال الأربعة ، وأسقطته أرضًا ، قبل أن يثب هو ، ويركل مسدس رجل ثان ، ثم ينحنى متفاديًا لكمة الثالث ..

ولكن كعب مسدس الرابع هوى على منتصف ظهره ، أسفل عنقه تمامًا ، فى نفس اللحظة التى انقضّ فيها الثانى عليه ، وأمسك معصمه فى قوة ، هاتفًا :

ـ لن تربح معركة مع أربعة منا أيها المصرى .

ضربه (علاء) بكعبه فى معدته ، صائحًا :

ـ من يدرى ؟!

ثم دار حول نفسه ، وأطلق رصاصة ثانية ، على ركبة الرابع ، الذى أطلق صرخة ألم رهيبة ، وهو يسقط على السطح ممسكًا ركبته ، وصارخًا :

ـ أيها الحقير .. أيها الـ ...

أخرسه (علاء) بركلة عنيفة فى فكه ، أفقدته وعيه على الفور ، و ...

ودوت من خلفه تلك الرصاصة ..

ثم شعر بالألم الرهيب فى عنقه ..

وتفجرت منه الدماء فى عنف ..

أما (منى) ، فما إن هاجمتها (زوشا) ، حتى انقضت عليها بدورها ، هاتفة :

ـ إذن فأنتم تصوّرون أننى مجرّد امرأة .

ثم وثبت فجأة ، وركلت المسدس من يد (زوشا) ، مستطردة فى غضب :

ـ انظروا إذن ما يمكن أن تفعله امرأة .. مصرية .

زمجرت (زوشا) فى غضب ، عندما فقدت مسدسها ، وقفزت نحو (منى) ، صارخة :

ـ تتصوّرين نفسك بارعة !!

وهوت بقبضتها على فك (منى) بكل قوتها ، مستطردة :

ـ جربى إذن التعامل مع عضلات (زوشا) .

تفادت (منى) اللكمة بانحناءة بارعة ، وهى تقول فى سخرية :

ـ القتال ليس مسألة عضلات .

ثم لكمت الروسية فى فكها مباشرة ، مضيفة :

ـ إنه فن .. وخبرة .

زمجرت (زوشا) مرة أخرى ، فى ألم غاضب ، وانقضت مرة أخرى على (منى) ، صارخة فى ثورة :

ـ أيتها الـ ..

وثبت (منى) جانبًا فى خفة ، ثم دارت حول نفسها فى سرعة ورشاقة ، واستقبلت الروسية بركلة عنيفة فى معدتها ، هاتفة :

ـ إياك أن تنطقيها .

مع آخر حروف هتافها ، دوت تلك الرصاصة ..

وعلى مسافة متر واحد منها ، رأت الدماء تتفجَّر من عنق (علاء) ، وهذا الأخير يترنَّح بشدة ، فينقضّ عليه رجلا (المافيا) الروسية فى وحشية ، ليهوى أحدهما على مؤخرة رأسه بكعب مسدسه ، فى حين يضمّ الآخر قبضتيه ، ويهوى بهما معًا على فكه بلكمة كالقنبلة ..

ولأن للجسد البشرى ـ أى جسد ـ طاقاته القصوى ، سقط (علاء) ..

سقط والدماء تتفجَّر من عنقه المصاب فى عنف ..

ومع سقوطه ، صوَّب أحد الرجلين مسدسه إلى رأسه ، صارخًا :

ـ مت أيها المصرى الحقير .

صرخت (منى) ، وهى تتخلَّى عن قتالها مع (زوشا) ، وتنقضّ على الرجل بمنتهى العنف :

ـ لا ...

كانت انقضاضتها مباغتة ، مما أفقد الرجل توازنه ، فطاشت رصاصته فى الهواء ، وهو يصرخ :

ـ أيتها الـ ...

قبل أن يتم صرخته ، وثبت (زوشا) نحو (منى) ، ولكمتها بكل قوتها ، فى مؤخرة عنقها ، هاتفة :

ـ تعلَّمى أن العضلات تصنع فارقًا .



أدار فوهة مسدسه إلى رأسها ، وهو يصرخ :
ـ أيتها الحقيرة ، سوف ..

كانت الضربة من القوة والعنف ، حتى إن جسد (منى) كله قد انتفض ، وكأنما أصابته صدمة كهربية شديدة ، وزاغت عيناها ، وهما تدوران في محجريهما ، وارتجّت الدنيا كلها أمامها ..

ثم أظلمت تمامًا ..

كان رجل (المافيا) ، الذي أسقطته (منى) ، ثائرًا غاضبًا بشدة ، حتى إنه أدار فوهة مسدسه إلى رأسها ، وهو يصرخ :

ـ أيتها الحقيرة ، سوف ..

أمسكت (زوشا) معصمه فجأة ، ولوته في قسوة ، صارخة :

ـ إنها فاقدة الوعي .. ألم تلحظ هذا ؟!

صاح في حدة :

ـ لقد هاجمتني .

زمجرت في وجهه بشراسة ، قائلة :

- وأنتم تجاوزتم حدودكم .. الزعيم قال : لا إطلاق نيران .

هتف الآخر :

- المصرى هو الذى أطلق النار أولاً .

صاحت به :

- اصمت .

ثم ألقت نظرة على الموقف كله ، قبل أن تلتقط هاتفها الخاص وتضغط أزراره فى عصبية ، مستطردة :

- الزعيم هو صاحب القرار الآن .

ولم يكد رنين الهاتف يرتفع ، حتى ألقى (بورى) سيجارته فى ركن القبو ، وهو يلتقطه ، هاتفًا :

- ما الموقف يا (زوشا) ؟!

شرحت له الموقف كله ، فى كلمات سريعة وافية ، واستمع هو إليها فى صمت وانتباه كاملين ، وهو يشعل سيجارة جديدة ، قبل أن يقول فى حزم صارم :

- أحضروا المرأة فورًا يا (زوشا) ، قبل أن تصل قوات الشرطة ، التى سيجذبها تبادل إطلاق النيران حتمًا .

سألته فى اهتمام :

- وماذا عن الآخر ؟!

مطَّ شفتيه ، ونفث دخان سيجارته ، قائلاً فى صرامة :

- وماذا سنفعل به ؟! اتركوه يلقى مصرعه هناك .. إننا لن ننفق قرشًا واحدًا لإسعاف خصم .

وابتسم فى سخرية مفاجئة ، مستطردًا :

- هذا لا يتفق مع سمعتنا .

ثم تبدَّل انفعاله فجأة ، ليكمل فى صرامة :

- الآن يا (زوشا) .

قالت (زوشا) فى حزم ، قبل أن تنهى المحادثة :

- بالتأكيد أيها الزعيم .. بالتأكيد .

وأعادت هاتفها إلى حزامها ، وهى تقول للرجلين :

- هيا .. الزعيم أمر بالعودة فورًا ، دون إضاعة ثانية واحدة .. تعاونا على نقل زميلينا وتلك المصرية إلى الطائرة .. وبأقصى سرعة .

هبطت الهليكوبتر ، المزوّدة بكاتم للصوت ، على ارتفاع متر واحد من السطح ، وراحت (زوشا) وزميلاها ينقلون المصابين و(منى) إليها ، في حين راقبهما (أيجور) في عصبية ، من الهليكوبتر الأخرى ، وهو يقول لنفسه :

- هيا .. أسرعوا .. إننا نرى سيارات رجال الشرطة ، وهي تتجه إلى هنا .

في نفس اللحظة ، التي وثبت فيها (زوشا) إلى الهليكوبتر ، استعاد (علاء) وعيه ..

كانت إصابة عنقه تنزف بشدة ، ورأسه يعاني دوارًا شديدًا ، من كثرة ما يفقد من دماء ، إلا أنه أدرك ما حدث على الفور ..

لقد أفقدوا (منى) وعيها ..

واختطفوها ..

المقدّم (منى) .. التي أمره أستاذه بالدفاع عنها .. بحياته ..

وكانت الهليكوبتر ترتفع بالفعل ، عندما اختطف (علاء) مسدسه ، ثم وثب واقفًا على قدميه ، في نشاط يتعارض بشدة مع ما فقده من دماء ..

وبكل ما تبقى فيه من قوة ، انطلق يعدو نحو الهليكوبتر ..

وبوثبة مدهشة ، تعلّق بقائمها السفلي الأيمن ..

واختلّ توازن الهليكوبتر ، مع ذلك الثقل المفاجئ ، ومالت على نحو بالغ الخطورة ، فصرخت (زوشا) في غضب :

- ماذا حدث ؟!

أدار قائد الهليكوبتر عصا القيادة جانبًا ؛ ليستعيد توازن الهليكوبتر ، في حين اندفع أحد رجلي (المافيا) غير المصابين ، نحو باب الهليكوبتر ، وهو ينتزع مسدسه ، هاتفًا في حدة :

- لو أن ما أتصوّره صحيح فسوف ..

لم يكن قد أتمّ عبارته بعد ، عندما فتح باب الهليكوبتر ، و ...

وانطلقت الرصاصة ..

رصاصة من مسدس (علاء) ، اخترقت رأس رجل (المافيا) الروسى مباشرة ، فجحظت عينا الرجل ، وسقط مسدسه من يده ، قبل أن يلحق جسده كله به ، فى نفس اللحظة التى تجاوزت فيها الهليكوبتر حاجز السطح ..

وفى ذعر ، هتف الطيّار :

- ماذا يحدث ؟!

صاحت به (روشا) ، وهى تستلّ مسدسها بدورها :

- امض فى طريقك ، واترك لنا الأمر يا هذا .

كانت تتساءل ، فى دهشة حقيقية ، عن تلك الإرادة المذهلة ، التى يتمتّع بها المصريون !

فالشاب ، الذى يتعلّق بالهليكوبتر بهذه الاستماتة ، والذى أسقط أحد رجالها ، مصاب برصاصة اخترقت جانب عنقه ، وفقد ما يقرب من نصف لتر من دمه ، حتى هذه اللحظة !!

وعلى الرغم من هذا ، فهو يقاتل كالوحوش !!

وعندما حاولت أن تطلّ برأسها من باب الهليكوبتر المفتوح ، أو تسعى لإغلاقه ، انطلقت رصاصة أخرى ، كادت تنسف رأسها ، قبل أن تتجاوزها بسنتيمترين أو ثلاثة ، وترتطم بلوحة الأزرار الداخلية ، على نحو جعل الطيّار يصرخ :

- ماذا يحدث ؟! إننا سنسقط ، لو استمر هذا !

تراجعت خطوة ، هاتفة فى صرامة :

- واصل طريقك .

ثم أمالت فوهة مسدسها إلى أسفل ..

وأطلقت النار ..

مرة ..

وثانية ..

وثالثة ..

واخترقت الرصاصات الثلاث أرضية الهليكوبتر ..

واحدة مرّت إلى جوار أذن (علاء) ..

والثانية احتكّت بكتفه ، وفجّرت منه المزيد من الدماء ..

أما الثالثة ، فقد غاصت فى فخذه اليمنى ..

وسالت الدماء غزيرة ، فى نفس اللحظة ، التى صرخ فيها الطيار :

- ماذا تفعلين أيتها المجنونة ؟! فى هذا الطراز من الطائرات ، تمرّ كل الأسلاك فى الأرضية .

زمجرت (زوشا) ، صارخة :

- واصل طريقك .

ارتفع الرجل بالهليكوبتر أكثر ، ومال بها على نحو مخيف ، فى محاولة للتخلّص من (علاء) ، إلا أن هذا الأخير تشبّث أكثر ، وهو يستنفر كل ماتبقّى من قواه ، ليدفع جسده إلى أعلى ، عبر باب الهليكوبتر المفتوح ، على الرغم من الهواء العنيف ، الذى يرتطم بوجهه وجسده ..

كانت الدماء تغرق جسده فى غزارة مخيفة ، والآلام تنتشر من مواضع إصاباته إلى جسده كله ..

ولكنه لم يستسلم ..

فتلك الهليكوبتر تحمل المقدّم (منى) ..

وكلمات أستاذه مازالت تتردّد فى كل ذرة من كيانه ..

« دافع عنها بحياتك .. »

« بحياتك .. »

والتقط (علاء) نفسًا عميقًا ، ثم دفع جسده كله إلى أعلى ..

وأطلقت (زوشا) رصاصة أخرى ، عندما لاح جسده من الباب المفتوح ..

رصاصة اخترقت ذراعه اليسرى ..

ولكن قدمه ارتفعت ، بكل ما تبقّى له من قوة ، ليركل المسدس من يد (زوشا) ..

ثم وثب داخل الهليكوبتر ..

كان ما يفعله مستحيلاً ، بكل المقاييس المنطقية والعملية ..

ولكنه فعلها ..

« دافع عنها بحياتك .. » ..

وبكل قوته ، انقضّ على (زوشا) ..

« دافع عنها بحياتك .. » ..

رجل (المافيا) الآخر اعترض طريقه ، وحاول أن يلكمه فى فكه ، ولكن (علاء) تفادى اللكمة فى براعة ، ثم لكم الرجل فى معدته ، قبل أن يمسك به من عنقه ، ويدفعه عبر باب الهليكوبتر المفتوح ..

وارتفعت صرخة الروسى ، وهو يهوى من حالق ، وذراعاه وساقاه يضربان الهواء فى رعب وارتياع ..

وانحنت (زوشا) تلتقط مسدسها ، وهى تصرخ :

ـ لن تربح أيها المصرى ..

وانطلقت من مسدسها رصاصة ..

وشعر (علاء) بآلام رهيبة فى صدره ..

« دافع عنها بحياتك .. » ..

العبارة ، التى لم يتوقف عقله عن ترديدها ، كانت تبعث فى كيانه كله قوة هائلة ، جعلته ينقضّ على (زوشا) ، ويمسك معصمها بيسراه ، ثم يهوى على فكها بلكمة كالقنبلة من يمناه ..

وصرخت (زوشا) فى ألم ، وهى تسقط أرضًا ، فى حين انقضّ (علاء) على قائد الهليكوبتر ، بكل ماتبقّى له من قوة ، وألصق فوهة مسدسه بصدغه ، صائحًا فى صرامة شديدة :

ـ اهبط أيها الوغد .. اهبط فى أقرب موضع يصلح لهذا ، قبل أن ...

بتر عبارته دفعة واحدة ، مع رصاصة جديدة ..

رصاصة لم يسمع دويها ؛ لأنها انطلقت من بعيد ..

من الهليكوبتر الأخرى ..

من بندقية (أيجور) ، المزوّدة بمنظار مقرّب ..

ومع انطلاقها ، شعر (علاء) بعود من النار يخترق ظهره ، فبتر عبارته ، وهو يطلق شهقة ألم عنيفة ..

« دافع عنها بحياتك .. » ..

وعلى الرغم من الظلام ، الذى بدأ يكتنف عقله ، انحنى يلصق فوهة مسدسه مرة أخرى بصدغ الطيّار ، هاتفًا فى ضعف :

- اهبط الآن .

وأطلق (أيجور) رصاصته الثانية ..

ومرة أخرى ، شهق (علاء) ..

« دافع عنها بحياتك .. »

« بحياتك .. »

« بحياتك .. »

« لقد حاولت .. »

تمتم هو بالعبارة الأخيرة قبل أن تظلم الدنيا كلها دفعة واحدة ، ثم يسقط جسده داخل الهليكوبتر ، وتتدفّق دماؤه الطاهرة على أرضيتها ، وروحه تنساب من جسده فى بطء ، معلنة مولد شهيد جديد ..

وانتصار (المافيا) الروسية فى هذه الجولة أيضًا ..

انتصارها الساحق .

* * *

٤ ـ الصدمة ..

لم تكد تلك السيارة الروسية الصغيرة تنفجر ، بعد أن ارتطمت بحواجز ذلك الكمين ، فى نهاية الشارع ، حتى توقَّفت سيارات الأمن الست ، التى كانت تطاردها ، وأطلقت إطاراتها صريرًا عنيفًا مخيفًا ، قبل أن يقفز رجال الأمن خارجها ، ويندفعون نحو الكمين ، وأحدهم يهتف فى ضباطه :

ـ هل رأى أحدكم قائد السيارة ؟! هل تعلمون ما إذا كان قد لقى مصرعه أم ؟!

قاطعه أحد ضباط الشرطة فى عصبية :

ـ لقى مصرعه ؟! هل أصابكم العمى يا رجل ؟ أم أنكم لم تروا ما حدث بالفعل ؟!

سأله قائد فرق الأمن فى توتر :

ـ وما الذى حدث ؟!

لوّح ضابط الشرطة بذراعه فى عصبية بالغة ، مجيبًا :

ـ لقد وثب من السيارة ، فور دخولها هذا الشارع ، وتركها تندفع نحونا بأقصى سرعتها .

اتسعت عينا القائد ، وهو يهتف :

ـ وثب منها ؟!

ثم تلفّت حوله فى حدة ، هاتفًا :

ـ ولماذا لم تفعلوا شيئًا ؟!

صاح ضابط الشرطة فى حنق :

ـ نفعل ماذا ؟! السيارة كانت تنطلق نحونا كالصاروخ ، وكنا نعلم أنها سترتطم بحواجزنا حتمًا ، والجنود أصابهم الذعر ، وأطلقوا عليها النار .. لقد كان هذا واجبكم أنتم .. كان ينبغى أن توقفوه .

انعقد حاجبا قائد فرقة الأمن فى غضب ، وهو يستدير إلى رجاله ، صائحًا :

- العصرى هنا .. اعثروا عليه بأى ثمن .. هل تسمعون ؟! بأى ثمن ..

اندفع الرجال ينتشرون فى المكان ، وراحوا يقلبونه رأسًا على عقب ، كمن أصابهم مسٌ من الجنون ، فى حين تجمع العشرات من المارة ، عند طرفى الشارع ، وقد جذبت تلك الأحداث العنيفة انتباههم ، وراحوا يتساءلون عما يحدث فى عاصمتهم ..

وفجأة ، هتف أحد الجنود :

- سيِّدى القائد .. انظر ما عثرت عليه .

اندفع القائد نحوه ، وانعقد حاجباه فى غضب شديد ، عندما شاهد الجندى يمسك بقناع وجه الجنرال (كواليسكى) ، فاعتدل ، وتلفَّت حوله ، هاتفًا :

- إنه هنا .. فى مكان ما هنا .. حاصروا المنطقة كلها .. لا تتركوا له فرصة واحدة للفرار .. راجعوا أوراق الجميع بمنتهى الدقة .. اعتقلوا كل من تنتابكم بشأنه ذرة شك واحدة .

شق كهل وقور ، أشيب الشعر ، جموع الناس فى صعوبة ، ليهتف بقائد فرق المطاردة :

- أيها القائد .. أنا (أليكس بوبوالين) .. مراسل جريدة (برافدا) .. أريد سؤالك عما يحدث هنا .

صاح به القائد فى غضب :

- ليس الآن يارجل .. ليس الآن .

ولكن الكهل واصل فى عناد :

- الشعب يحق له معرفة كل الحقائق .. الأمور لم تعد كسابق عهدها .. إخفاء الحقائق لم يعد حقًا للحكومة ، و ...

صرخ القائد بنفاد صبر :

- أبعدوا هذا الرجل من هنا ، قبل أن أفقد أعصابى ، وأطلق عليه النار .

اندفع جنديان نحو المراسل الصحفى ، ودفعاه أمامهما فى خشونة ، وهو يصرخ محتجًا :

ـ ليس من حقك هذا أيها الضابط .. (برافدا) جريدة حرة ، والشعب ينبغى أن يعرف مايحدث .. هذا حق يكفله الدستور الجديد .. حق للجميع .

صاح به أحد الجنديين ، وهو يدفعه فى غلظة ، بعيدًا عن المكان :

ـ ابتعد يا هذا ، وإلا جعلنا منك عبرة لمن يعتبر .

بدا عليه الغضب ، وهو يلوّح بقبضته ، هاتفًا :

ـ سأنشر كل هذا .. وفى الصفحة الأولى .

ضحك أحد الجنود ، المنتشرين فى المكان ، ولوّح بيده ، قائلاً :

ـ استمع إلى النصيحة ، وغادر المكان بسرعة يا رجل ، فهذا الضابط معروف بنفاد الصبر .

لوّح الكهل بقبضته مرة أخرى ، وهو يبتعد ، قائلاً فى غضب :

ـ هذا الضابط ارتكب أكبر خطأ فى عمره كله .

ثم تغيّرت ملامحه بغتة ، وحملت ابتسامة ساخرة ، وهو يضيف بالعربية فى خفوت شديد :

ـ فقد كان ينبغى أن يراجع أوراقى .

قالها ، ودس كفيه فى جيبى معطفه ، وهو يبتعد فى خطوات سريعة واسعة ، عائدًا إلى ذلك المنزل الآمن ، الذى ترك فيه شقيقه ورفاقه ..

وفى طريقه ، التقطت أذناه بعض الأحاديث العابرة ، عن إطلاق نيران فوق أحد الأسطح ، وثلاث جثث سقطت من هليكوبتر ، اختفت دون أن يعثر لها رجال الشرطة على أثر ، أو يمكنهم حتى تحديد هويتها ..

وفى أعماقه تصاعد توتر شديد ..

وقلق بلا حدود ..

ففى مثل هذه الظروف ، كان من المستحيل أن يتصوّر أن ما حدث بعيد عن رفاقه !!

إطلاق نيران ..

وهليكوبتر ..

وجثث تتساقط ..

يا إلهى ! تُرى ماذا حدث ؟!

لقد ترك (منى) و(علاء) فى قلب (موسكو)، فهل يمكن أن ..

ولم يكتمل تساؤله فى أعماقه ..

أو لم يرغب هو فى إكماله ..

كل ما فعله هو أن زاد من سرعته أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

كان ما يضاعف من توتره هو اضطراره لاتخاذ مسارات معقدة ؛ تجنبًا لدوريات الشرطة ، والأماكن التى يتم فيها تفتيش أوراق المارة بمنتهى الدقة ..

وهذا يستلزم المزيد من الوقت ..

ومن التساؤل ..

والانفعال ..

ولكنه ، أخيرًا ، وصل إلى المنطقة ، التى تضمّ ذلك المنزل الآمن ..

لم يعد أمامه سوى أن يدور حول تلك الناصية ، و ...

« توقّف .. » ..

اخترق الهتاف الهامس أذنيه ، مع تلك اليد القوية ، التى أمسكت كتفه فجأة ، فاستدار إلى صاحبها بسرعة ، ووقع بصره على (أسعد) ، مسئول مكتب المخابرات المصرية فى (موسكو) ، والذى حدّق فى وجهه لحظة ، قبل أن يقول فى عصبية ، وهو يلقى نظرة مدقّقة على أذنه :

ـ أنت هو .. أليس كذلك ؟!

أجابه (أدهم) فى توتر :

ـ بالطبع يا (أسعد) .. لقد رأيتنى بنفسك أصنع هذا القناع .

ثم تطلّع إلى عينيه مباشرة ، مستطردًا :

ـ ماذا حدث ؟!

أشار (أسعد) بيده ، قائلاً فى انفعال :

ـ هذا المنزل لم يعد آمنًا بعد .. سننتقل إلى المنزل الآمن الاحتياطى فورًا .. (المافيا) الروسية كشفت أمر هذا .

سأله (أدهم) ، فى حزم عصبى :

ـ وماذا عنهم ؟!

ازدرد (أسعد) لعابه فى صعوبة ، وهو يقول :

ـ الواقع أن لدى أخبارًا سيئة .

خفق قلب (أدهم) فى عنف ، وهو يمسك كتفيه فى قوة ، ويسأله بكل توتر الدنيا :

ـ من منهم ؟!

خفض (أسعد) عينيه ، مجيبًا فى مرارة :

ـ كلهم ..

وكانت صدمة عنيفة لـ (أدهم) ..

صدمة هزّت كيانه كله ..

من الأعماق ..

* * *

التمعت عينا (يورى إيفانوفيتش) ببريق ظافر ، وهو يسترخى فى مقعد وثير ، يحتل أحد أركان الجراج الكبير القديم ، أسفل دار عرض سينمائى مهجورة ، فى أطراف (موسكو) ، ويبدو شديد الثقة والاستمتاع ، وهو ينفث دخان سيجارته ، بمنتهى العمق والبطء ، قبل أن يقول بابتسامة كبيرة ، ولهجة تموج برنة النصر :

ـ إذن فقد أصبحوا جميعًا فى قبضتنا .

قالت (زوشا) فى توتر :

ـ لقد خسرنا رجلين ، وهناك آخران مصابان ، و ...

كزّ فى صرامة ، وكأنه يدعوها إلى الصمت :

ـ جميعهم أصبحوا فى قبضتنا .

أحنقها أسلوبه الفج هذا ، ولكنها لاذت بالصمت كعادتها ، ثم غمغمت :

ـ جميعهم ، فيما عدا قائدهم .

انطلقت من حلقه ضحكة عالية مجلجلة ، قبل أن ينفث دخان سيجارته مرة أخرى فى بطء وعمق ، ثم يقول :

ـ هم سيأتون به إلينا ، على طبق من ذهب .

قالت فى عصبية :

ـ إنه ليس بهذا الغباء .

رمقها بنظرة ساخرة ، وهو يقول :

ـ سترين .

ثم اعتدل ، وألقى بقايا سيجارته بلا مبالاة ، متابعًا :

ـ سيتصورّ نفسه عبقريًا ، وسيضع خطة معقّدة .. ولكنه سيأتى حتمًا .

وأطلق ضحكة ، ساخرة قصيرة ، قبل أن يضيف :

ـ لن يتخلّى عنهم أبدًا .

تمتمت دون اقتناع :

ـ بالتأكيد .

ثم التقطت نفسًا عميقًا ، قبل أن تقول فى توتر :

ـ الجنرال (فاسيلوف) فى طريقه إلى هنا .

رفع أحد حاجبيه وخفضه ، قائلاً :

ـ على الرحب والسعة .

سألته فى شىء من الضيق :

- أما زلت تخطط لتلك الفكرة الـ ...

كادت تصف فكرته بالجنـون ، إلا أنهـا عدلت عن هذا فى اللحظة الأخيرة ، وأكملت :

- العبقرية .

رمقها بنظرة نارية ، وكأنما قرأ ما لم تنطقه ، وهو يقول فى صرامة :

- بالتأكيد .

التقطت نفسًا عميقًا ، وتمتمت :

- إنه حلم لم ينجح أحد فى تحقيقه من قبل ، حتى فى الأفلام السينمائية الأمريكية .

صمت بضع لحظات ، ونفث دخان سيجارته بشىء من العصبية ، تناقض مع صوته الهادئ ، وهو يقول :

- كل من حاولوا السيطرة على العالم من قبل ، لم يكونوا بالعبقرية الكافية .

مطّت شفتيها متمتمة :

- ربما .

لم تكد تنطقها ، حتى انطلق أزيز خافت داخل المكان ، فوثبت يدها بحركة غريزية إلى مسدسها ، وهى تقول :

- لقد وصل (فاسيلوف) .

نفث (بورى) دخان سيجارته فى بطء ، وهو يغمغم :

- عظيم .

لم تمض دقيقة واحدة ، حتى كان الجنرال (فاسيلوف) يقف أمامه ، قائلاً بلهجة ظافرة ، ذات رنين عسكرى :

- كل شىء على ما يرام أيها الزعيم .

مال (بورى) إلى الأمام ، وهو يقول فى بطء :

- حقًا ؟!

ابتسم (فاسيلوف) ، قائلاً :

- الرجال تعاونوا معًا بإخلاص ، وخاصة بعد الحوادث



انطلق أزيز خافت داخل المكان ، فوثبت يدها بحركة غريزية إلى مسدسها ..

العرضية ، التى أزاحت المعارضين عن الطريق ، والتى تولى رجالك أمرها بنجاح ..

اكتسب صوت (يورى) صرامة مباغتة ، وهو يقول :

ـ كل مايتولاه رجالى يتم بنجاح .

امتقع وجه الجنرال (فاسيلوف) ، وهو يقول :

ـ بالتأكيد أيها الزعيم .. بالتأكيد .

تراجع (يورى) فى مقعده ، والتقط آخر أنفاس سيجارته ، قبل أن يلقيها بعيدًا ، وهو ينفث دخانها فى عمق ، قائلاً :

ـ ألدينا الكميات المطلوبة الآن ؟!

استعاد الجنرال (فاسيلوف) ابتسامته ، وهو يقول :

ـ الكميات الكافية ، لتوجيه ضربة التهديد الأولى .

ثم بدا عليه الاهتمام ، وهو يضيف :

ـ ولكن الهجوم نفسه سيحتاج إلى كميات أكثر ضخامة ، ومن المستحيل أن أحصل عليها بالأسلوب نفسه .

أشعل (يورى) سيجارة أخرى ، وكأنه لا يستطيع التنفس دون تبغ ، ثم قال ، وهو ينفث دخانها :

ـ اترك هذه المهمة لنا .

سأله فى فضول :

ـ كيف ستفعلونها ؟!

ارتسمت على شفتى (يورى) ابتسامة جذلة ، وهو يشير بيديه ، قائلاً :

ـ بأكبر ضجة ممكنة .

حدّق (فاسيلوف) فى وجهه ، قائلاً :

ـ ماذا تعنى ؟!

أجابه فى صرامة مباغتة :

ـ أعنى أننا سنقتحم مخزن غاز الأعصاب الرئيسى وسننسف بوابته ، ونقتل كل حراسه ، ثم تدخل لورياتنا لتحمل كل أسطوانات الغاز ، وبعدها سننسف المكان ، ونشعل النار فى بقاياه ، و ...

قاطعه الجنرال (فاسيلوف) مبهورًا :

ـ ولماذا كل هذا العنف ؟!

ابتسم (يورى) ابتسامة عجيبة ، جعلته أشبه بذئب مفترس ، انتهى فورًا من التهام فريسة سمينة ، قبل أن يقول :

ـ هذا هو الغرض الرئيسى يا رجل .. أن نشعل الدنيا .. أن نفتح عيون العالم عن آخرها ، فى ذهول وارتياع ، بحيث يصبح من المستحيل إخفاء الأمر .

ثم مال إلى الأمام ، واستعاد شراسته ، وهو يضيف :

ـ لابد أن يعرف العالم كله ما فعلناه .. والأكثر أهمية أن يعرف كيف فعلناه .

تمتم الجنرال مبهوتًا :

ـ ولماذا ؟!

أجابته (زوشا) هذه المرة فى صرامة عصبية :

ـ حتى يدرك العالم كله أننا بلا قلب .. بلا رحمة .. قساة .. غلاظ .. لن نتورع عن إبادة نصف العالم ، للسيطرة ، على النصف الآخر ..

حدّق فيها الجنرال فى ذهول مرتاع ، فى حين قهقه (يورى) ضاحكًا ، وهو يقول :

ـ عظيم يا (زوشا) .. عظيم .. أخيرًا بدأ عقلك المحدود يستوعب عبقرية عقل (يورى إيفانوفيتش) .

ابتسمت وهى تمط شفتيها ، على نحو منحها مظهرًا مضحكًا ، وهى تقول :

ـ يا لى من محظوظة !

نهض (يورى) من مقعده فجأة ، مع آخر حروف كلمتها ، والتقط خريطة للعالم ، فردها على سطح

المنضدة الصغيرة أمامه ، وهو يقول للجنرال فى صرامة آمرة :

ـ ستتولى بنفسك عملية إرسال العينات إلى ست مناطق فى العالم .. واحدة فى كل قارة .

التقط قلمًا أحمر ، ورسم ست دوائر على الخريطة ، قبل أن يضيف بنبرة شرسة :

ـ هذه المناطق هى التى ستشهد الاختبار الأوّلى .

وضرب الخريطة براحته ، وهو يكمل ، وعيناه تتألقان فى وحشية :

ـ اختبار القوة .

ازدرد (فاسيلوف) لعابه فى صعوبة ، وهو يحدّق فى الخريطة ، وبالذات فى ذلك الموقع ، الذى ضربته راحة (يورى) ..

(مصر) ..

* * *

لساعة كاملة ، منذ وصولهما إلى المنزل الآمن الاحتياطى ، لم ينبس (أدهم صبرى) ببنت شفة ..

لقد اتخذ مقعدًا يواجه النافذة ، وجلس عليه صامتًا كتمثال من الحجر ، وعيناه شاردتان ، وكل خلجة من خلجاته تعلن الاستغراق فى تفكير عميق ..

وحزن أكثر عمقًا ..

وطوال تلك الساعة ، لم يحاول (أسعد) مقاطعته بحرف واحد ..

فقد كان يدرك جيدًا ما يمرّ به ..

لقد انتصرت (المافيا) الروسية انتصارًا ساحقًا هذه المرة بحق ..

وانتصارها سلبه كل من يحب ، فى الدنيا كلها ..

شقيقه الوحيد الدكتور (أحمد) ..

زميلته وحبيبته (منى) ..

أصدق أصدقائه (قدرى) ..

فريقه : (شريف) و(ريهام) ، و ...

و(علاء) ..

الشهيد (علاء) ..

ومن المؤكد أن هذا ليس بالأمر السهل ..

إنها كارثة ..

وبكل المقاييس ..

رجل غيره كان من الممكن أن ينهار تمامًا ، من وطء صدمة كهذه ..

ولكن ليس هو ..

ليس (أدهم صبرى) ..

ليس (رجل المستحيل) ..

صحيح أن الحزن يعتصر قلبه ..

ولكنه أبدًا لم يفسد عقله ..

أو تفكيره ..

لذا فقد لاذ بالصمت طويلاً ، ليمتصّ الصدمة ، ويغلب انفعاله ..

ثم يدرس الموقف كله ..

وبمنتهى الدقة ..

فوجد كل من يحب ، فى قبضة منظمة إجرامية دموية ، مثل (المافيا) الروسية ، يجعل موقفه شديد الحساسية ..

والضعف ..

ولو أنه يبغض شيئًا ، فى حياته كلها ، فهو الضعف ..

أو الشعور بالضعف ..

لذا ، فقد كان عليه أن يفكّر ..

ويفكّر ..

ويفكّر ..

أن يدرس كل لمحة ، وكل تفصيلة ، مهما بدت بسيطة ..

أو حتى تافهة ..

هذا لأن المواجهة ستكون عسيرة هذه المرة .. للغاية !

الخطأ الواحد يمكن أن يكون ثمنه غاليًا ..

غاليًا جدًّا ..

قد يصبح حياة واحد من أهله ..

دماء أقرب أقربائه ، فى العالم كله ..

التقط نفسًا عميقًا ، وأطلقه من صدره على شكل زفرة ملتهبة ، أثارت المزيد من حزن (أسعد) وتعاطفه ، فاقترب منه ، وربّت على كتفه متعاطفًا ..

وفى بطء ، أدار (أدهم) عينيه إليه ، ثم قال فى صرامة شديدة ، بدت وكأنها وسيلته لإخفاء حزنه ومرارته :

- أريد أن تعود جثة الشهيد (علاء) إلى (مصر).

أومأ (أسعد) برأسه إيجابًا، وقال فى خفوت:

- بالتأكيد .. سفيرنا تدخَّل شخصيًا، و...

قاطعه (أدهم) بنفس الصرامة:

- الليلة .

حدَّق (أسعد) في وجهه بدهشة مستنكرة، قبل أن يهز رأسه، قائلاً:

- هناك إجراءات لابد من اتباعها، فى مثل هذه الظروف، فالشهيد (علاء) لقى مصرعه فى مواجهة عنيفة غير قانونية، و...

قاطعه (أدهم) مرة أخرى، وقد تسللت نبرة عصبية إلى صرامته:

- (علاء) لقى مصرعه من أجل (مصر) ..

انتبه إلى عصبيته، فتوقَّف، وعض شفته السفلى لحظة، قبل أن يتابع بنفس الصرامة الزائدة:

- لابد أن يعود إلى (مصر) يا (أسعد) .. لابد أن يُدفن فى ترابها، دون أن يمسه إصبع أى مخلوق هنا .

قال (أسعد) فى ارتباك:

- سيادة العميد .. الموقف .. الآن بيد سلطات التحقيق، ولابد من المرور بالإجراءات الرسمية .. فحص الجثة، وتشريحها، و...

قاطعه (أدهم) فى حدة:

- كلاَّ ..

ثم عض شفته السفلى مرة أخرى، وكأنه يكتم انفعالاً جارفًا فى أعماقه، قبل أن يتابع، فى حزم صارم:

- رجال (المافيا) هنا علَّمونا أن لكل شىء ثمنًا .. حتى سلطات التحقيق ..

سأله (أسعد) فى توتر:

- ماذا تعنى ؟!

تابع (أدهم) ، وكأنه لم يسمعه :

ـ لذا فقد أصدرت أوامرى ، باعتبارى صاحب مؤسسة (أميجو) للإليكترونيات ، إلى فرعها هنا ، بأن يتم منحك كل الاعتمادات والتسهيلات اللازمة ، مع وضع طائرة خاصة رهن إشارتك ، الإقلاع وقتما تطلب .. حاملة شحنه بالغة الأهمية ، إلى (القاهرة) مباشرة .

ازدرد (أسعد) لعابه ، وهو يتمتم :

ـ هذه الشحنة هى (علاء) .. أليس كذلك ؟!

لم يجب (أدهم) ، وإنما ازدرد لعابه على نحو ملحوظ ، كوسيلة أخرى لكتمان كل ما تموج به أعماقه من انفعالات ، ثم قال :

ـ أريده أن يسافر إلى (مصر) ملفوفًا بعلمها ، وأن يصل إليها كبطل وشهيد ..

غمغم (أسعد) ، وقد أدرك مدى مايعنيه هذا له من أهمية :

ـ سأفعل كل ما تطلبه .

أومأ (أدهم) برأسه متفهمًا ، ثم صمت بضع لحظات ، قبل أن يسأله فى صرامة :

ـ هل حصلت على ما طلبته منك من معلومات ؟!

أومأ (أسعد) برأسه بدوره ، وهو يقول :

ـ إلى حد ما .

بدا من الواضح أن إجابته قد استفزّت (أدهم) ، فقد قال فى حدة :

ـ هل حصلت عليها أم لا ؟!

أخرج (أسعد) من جيبه ورقة مطوية ، وهو يجيب فى سرعة :

ـ لقد توصلنا إلى معرفة اسم الزعيم الجديد لمنظمة (المافيا) الروسية ، ولكن أحدًا لم يحصل على أية معلومات حاسمة بشأنه ، فالبعض وصفه بأنه عبقرى ، والبعض الآخر نعته بالجنون ، وبعض من عرفوه فى شبابه يقولون : إنه مزيج من هذا وذاك ، وإنه من المستحيل أن يتنبأ مخلوق واحد بخطواته التالية ، ثم

إنه ليس له مقر معروف ، فهو يلتقى برجاله فى كل مكان ، وأى مكان ، ولم يلتق به أى مخلوق مرتين فى مكان واحد ، وهذا يوحى بأنه شديد الحذر إلى حد مدهش ، و ...

قاطعه (أدهم) ، ليسأله فى اهتمام :

ـ وما اسمه بالضبط ؟!

التقط (أسعد) نفسًا عميقًا ، وقال :

ـ (يورى) .. (يورى إيفانوفيتش) .

التفت إليه (أدهم) بحركة حادة ، فأومأ برأسه إيجابًا ، وأضاف :

ـ نعم .. إنه شقيق (إيفان) .

انعقد حاجبا (أدهم) فى شدة ، وعاد يدير عينيه إلى النافذة ، وغرقت ملامحه كلها فى تفكير عميق ، استغرق دقيقتين كاملتين ، قبل أن يغمغم فى مرارة :

ـ إنه الانتقام .

لم يعلّق (أسعد) على عبارته ، فتابع بمرارة أكثر :

ـ أنا المقصود منذ البداية .

ثم عض شفته السفلى ، مضيفًا فى ألم :

ـ أنا المسئول عن كل ما حدث .

ربّت (أسعد) على كتفه ، مغمغمًا فى تعاطف :

ـ لم يكن ذنبك يا سيادة العميد .. إنهم ..

قاطعه (أدهم) فى هدوء مرير ، لا يخلو من الحزم :

ـ (أسعد) .. اتركنى وحدى قليلاً ..

تنهّد (أسعد) متمتمًا :

ـ فليكن يا سيادة العميد .

ربّت على كتفه مرة أخرى ، قبل أن يغادره ، ويتركه وحده ، على المقعد نفسه ..

وفى هذه المرة ، طال صمت (أدهم) ..

ظل لثلاث ساعات كاملة ..

ثلاث ساعات ، أعاد خلالها دراسة كل معلومة ، على ضوء المعطيات الجديدة ..

وعندما مالت الشمس للمغيب ، كان قد حسم أمره ..

واتخذ قراره ..

ولقد كان قرارًا حازمًا ..

صارمًا ..

قويًا ..

قرار سيقلب حتمًا كل الأمور رأسًا على عقب ..

وبمنتهى العنف .

* * *

٥ ـ كل القوى ..

« فاشل .. أنت رجل مخابرات فاشل .. »

صاح مدير المخابرات الروسية بالعبارة ، فى وجه الجنرال (كوالسكى) فى غضب هادر ، وهو يلوّح بسبّابته فى وجهه ، قبل أن يتحسّس تلك الكدمة فى وجهه ، مستطردًا :

ـ كل أمر تتولاه ينتهى بالفشل .

غمغم (كوالسكى) فى حنق :

ـ إننا نتحدث عن (أدهم صبرى) يا سيدى .

صرخ المدير فى وجهه :

ـ حتى لو كنا نتحدث عن الشيطان نفسه .. إنه عملك ، ولابد أن تبذل قصارى جهدك ، لا أن تغلبك انفعالاتك ، فتتحول إلى بغل أحمق .

أغضب ذلك الوصف المهين (كواليسكى) بشدة ، فقال فى عصبية :

ـ تذكر يا سيدى أنك قد أسهمت فى نجاح خطة المصرى .

هتف المدير كالمصعوق :

ـ أنا ؟!

أجابه فى حدة :

ـ نعم يا سيدى .. أنت .. مناورتك التى قمت بها ، وأنت تتصور أنك تنفذ تعليمات الرئيس ، أثارت شكوكنا بشأنك ، وجعلتنا نتصور أنك أنت الزائف ، وليس ...

قاطعه المدير فى حدة أكثر :

ـ كفى .

ثم تحرك بعيدًا عن مكتبه فى توتر ، متابعًا :

ـ ولكن الأمر الذى ينبغى أن ندرسه بدقة ، وأن نضع حوله ألف علامة استفهام ، هو ذلك العنف الشديد ، الذى تطارد به (المافيا) فريق المصريين .

قال (كواليسكى) ، وهو يحاول بكل جهده السيطرة على أعصابه :

ـ هذا أمر طبيعى .. المصريون هم الذين قتلوا زعيم (المافيا) السابق (إيفان إيفانوفيتش) ، وتحرياتنا تقول : إن زعيمهم الحالى هو (بورى) ، شقيق (إيفان) ، الذى لن يهدأ له بال حتمًا ، حتى ينتقم ممن قتلوا شقيقه .

توقف المدير ، وتطلع إليه فى صمت وشك ، قبل أن يقول :

ـ أنت تتحدث عن السبب ، وليس الوسيلة .

سأله (كواليسكى) فى حذر شديد :

ـ ماذا تعنى يا سيدى ؟!

رفع المدير سبابته ، قائلاً فى حزم :

ـ أعنى أنه منذ بدأت هذه العملية ، ومنظمة (المافيا) تسبقنا بخطوة ، وكأن رجالها يعرفون تحركاتنا مسبقًا .

تضاعف حذر (كواليسكى) ، وهو يقول :

ـ ولكن هذا يعنى أنه ...

قاطعه المدير ، ليكمل فى صرامة :

ـ أنه هناك خائن فى صفوفنا .

امتقع وجه الجنرال (كواليسكى) ، وهو يهتف فى ارتياع :

ـ خائن ؟!

أجابه المدير فى صرامة أكثر :

ـ نعم .. خائن ينقل كل أسرارنا ، وكل تحركاتنا ، إلى زعماء (المافيا) .

غمغم (كواليسكى) ، وهو يبذل جهدًا مذهلاً ، للسيطرة على أعصابه :

ـ سيّدى .. هذا ليس ...

قاطعه المدير مرة أخرى :

ـ ليس مستحيلاً .

ثم عاد إلى مكتبه ، واستقرّ خلفه ، قائلاً :

ـ ولكن لا تقلق نفسك بهذا بشأن هذا .. واصل أنت مهمتك ، وواصل بحثك عن المصريين الهاربين ، واترك لنا نحن مهمة البحث عن الخائن .

تنهّد (كواليسكى) فى توتر بالغ ، وهو يغمغم :

ـ فليكن .

راقبه المدير ببصره ، حتى غادر مكتبه ، ثم انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يغمغم فى غضب :

ـ ستدفع ثمن غبائك غاليًا يا (كواليسكى) .

ثم التقط سمّاعة هاتف خاص مؤمّن ، وضغط زرًا واحدًا ، سمع بعده صوت محدّثه ، فقال فى صرامة :

ـ (بافلوف) .. إنه أنا .. اسمعنى جيّدًا .. أريد منك أن تراقب الجنرال (كواليسكى) .. نعم .. (جوزيف كواليسكى) .. راقب منزله ، وهاتفه ، وحتى الهاتف الخلوى الخاص الذى يحمله .. أريد معرفة كل همسة ينطق بها ، وكل شخص يصافحه .. بل كل من يمر به .

وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يضيف :

ـ أنا واثق من أن هذا سيصنع فارقًا ، فارقًا ضخمًا .

أجابه الكولونيل (بافلوف) فى حزم :

ـ أوامرك يا جنرال .. اطمئن .. سأقوم بالمهمة على أكمل وجه .

وأنهى المحادثة ، وهو يفكر فى عمق ، متمتمًا :

ـ عجبًا ! ولماذا الآن ؟!

استغرق فى التفكير بضع لحظات ، ثم التقط هاتفه الخاص من جيبه ، وضغط أزراره فى سرعة ، ثم وضعه على أذنه ، وشفتاه تحملان شبح ابتسامة ، لم تلبث أن تحولت إلى ابتسامة كبيرة ، وهو يقول :

ـ جنرال (كوليسكى) .. إنه أنا .. الكولونيل (بافلوف) .. لن يمكنك أن تصدق ما طلبه منى المدير منذ لحظات ..

قالها ، وتحولت ابتسامته إلى ضحكة كبيرة ..

ضحكة عالية ..

وساخرة ..

تمامًا ..

* * *

تراجع مدير المخابرات المصرية فى مقعده ببطء ، وهو يطالع البرقية الأخيرة ، التى أرسلها (أسعد) من (موسكو) ، فى اهتمام بالغ ..

طالعها مرة ..

وثانية ..

وثالثة ..

وفى قلق واضح ، رفع عينيه إلى نائبه ، قائلاً :

ـ إذن فجثة الشهيد (علاء) ستصل عند الفجر .

أومأ نائبه برأسه إيجابًا ، وقال :

ـ لقد اتخذنا كل الإجراءات اللازمة لاستقبالها

ياسيدى .. ولقد أمر السيد رئيس الجمهورية بإقامة جنازة رسمية للبطل ، وسيتم منح أسرته معاشًا كاملاً .

هزّ المدير رأسه ، متمتمًا :

ـ عظيم .. عظيم ..

ثم مال إلى الأمام ، متسائلاً :

ـ ولكن ماذا عن (ن ـ ١) نفسه ؟! برقية (أسعد) لم تحمل لنا أية معلومات بشأنه ، أو بشأن ردود أفعاله المنتظرة .

غمغم النائب فى حذر :

ـ البرقية تقول : إن سيادة العميد (أدهم) لم يصرّح له بأى شىء مما ينتويه .. فقط قضى ما يقرب من ثلاث ساعات فى صمت ، ثم غادر بعدها المنزل الآمن الاحتياطى ، وكأنه على موعد مهم .

التقى حاجبا المدير ، وعاد يتراجع فى مقعده ، قائلاً :

ـ هذا يشير إلى أمر واحد .

سأله النائب :

ـ وما هو ؟!

أجابه فى توتر :

ـ أن (ن ـ ١) لا ينوى الالتزام بأية قواعد .

هزّ النائب كتفيه ، وقال فى حذر أكثر :

ـ هذا دأبه دومًا .

قال المدير فى حزم :

ـ ولكن هذه المرة سيتجاوز الأمر كل القواعد .

وصمت لحظة ، ثم أضاف :

ـ وكل الحدود .

شعر نائبه بالقلق ، وهو يغمغم :

ـ إنها كارثة .

وافقه المدير بإيماءة من رأسه ، قبل أن يقول :

ـ نعم .. إنها كارثة بالتأكيد .

ثم شبك أصابع كفيه أمام وجهه ، مستطردًا :

ـ ولكن السؤال هو : لمن ؟!

وتطلع إليه نائبه فى حيرة ، فقد بدت له عبارة المدير غامضة ..

غامضة إلى أقصى حد ..

* * *

أشعل أحد الحارسين الضخمين ، عند المدخل الخلفى للملهى الليلى الكبير ، الذى تديره منظمة (المافيا) الروسية سرًا ، سيجارته القصيرة ، ونفث دخانها فى قوة وغضب ، قبل أن يشير بإبهامه إشارة غير ذات معنى ، قائلاً فى سخط :

ـ الكل يلهو فى الداخل ، ونحن وحدنا هنا .

غمغم رفيقه فى خشونة :

ـ هذا لايحدث دائمًا يا رجل .. إننا نتولى الأمر كل أربعة أيام فحسب .

هتف الأول فى سخط أكثر :

ـ ولكننا نقضى لياليها هذه فى ملل تام .

مطّ الثانى شفتيه ، وتمتم :

ـ أليس هذا أفضل من قتال الشوارع فى الماضى ؟!

ضرب الأول الهواء بقبضتيه ، وكأنما يلاكم خصمًا وهميًا ، لايراه سواه ، وهو يقول :

ـ على العكس .. قتال الشوارع كان يبعث فينا كل الحيوية والنشاط ، أما الآن ، فأنا لم ألكم شخصًا منذ ما يزيد على خمسة أشهر كاملة .

ابتسم الثانى فى سخرية ، قائلاً :

ـ نحن نحرس ملهى يخص (المافيا) يا رجل .. من فى رأيك يجرؤ على إزعاج مكان كهذا ؟!

شاركه الأول ابتسامته ، وهو يقول :

ـ إما مجنون أو أحمق .

اعتدل الثانى فجأة فى تحفُّز ، وقال :

ـ تُرى أيهما ينطبق على هذا ؟

استدار الأوَّل إلى حيث ينظر زميله ، ووقع بصره على ذلك الرجل ، الذى يتجه نحوهما مباشرة ، بخطوات قوية سريعة ، عبر الشارع الخلفى الضيق ، الذى ينتهى بالمدخل الخلفى للملهى ..

ومع ثبات خطواته وقامته ، غمغم الثانى فى عصبية ، وهو يستل مسدسه :

ـ لو أخرج سلاحًا ، أطلق عليه النار بلا تردُّد .

برقت عينا الأوَّل ، وهو يقول فى جذل :

ـ ألا يمكننا أن نوسعه ضربًا أوَّلاً .

لم يكن الثانى فى حالة مزاجية ، تسمح له بمناقشته ، أو حتى الابتسامة لدعابته ، فرفع فوهة مسدسه نحو القادم ، وهو يقول فى خشونة :

ـ هل ضللت طريقك يا هذا أم ..

قبل أن يتمّ عبارته ، وثب القادم فجأة ، وركل المسدس من يده ، ثم هوى على فكه بلكمة كالقنبلة ، جعلت الثانى يصرخ :

ـ كيف تجرؤ ..

مع آخر حروف صرخته ، دار القادم ، حول نفسه فى سرعة ، وركل الرجل فى أنفه ، ثم أكمل دورته ، ليركله بقدمه الثانية فى فكه ، قبل أن يهبط على قدميه ، ثم يلكم الأوَّل لكمة كالقنبلة فى أنفه ، ويستدير ليلكم الثانى فى معدته ، ثم يهوى بقبضته على مؤخرة عنقه ، ويثب ليركل الأوَّل فى صدره ، ويضرب ظهره فى الجدار ، ثم يستقبله بلكمة صاعقة ساحقة ، فى أسنانه مباشرة ، عند ارتداده ..

استغرق هذا ثوانىَ معدودة ، سقط بعدها الرجلان أرضًا فاقدى الوعى ، كما لو أنهما قد واجها إعصارًا مدمرًا ، أتى عليهما قبل أن يدركا حدوثه ..

وللثانية ، وقف (أدهم) ينقل نظره بينهما ، ثم دفع الباب الخلفى بقدمه ، ودلف إلى الملهى الليلى الشهير ، فى قلب (موسكو) ..



قبل أن يتم عبارته ، وثب القائم فجأة ، وركل المسدس من يده ، ثم هوى على فكه بلكمة كالقنبلة ..

إلى وكر الذئاب ..

وفى تلك الممر الطويل ، الذى يقود إلى القاعة الخلفية للملهى ، استوقفه رجل غليظ الملامح ، قائلاً فى خشونة :

- إلى أين يا رجل ؟!

ودون كلمة واحدة ، ارتفعت قبضة (أدهم) تغوص فى معدته ، بقوة تكفى لقتل ثور ، حتى إن الرجل أطلق شهقة ألم مذعورة ، وعيناه تجحظان عن آخرهما ، وانحنى إلى الأمام ، من فرط الألم ، فأمسكه (أدهم) من شعره ، وجذبه فى قوة ، ليضرب الجدار برأسه فى منتهى العنف ، فى نفس اللحظة التى ارتفعت فيها ركبته لتحطِّم أنفه ..

وقبل حتى أن يسقط الرجل أرضًا ، وتتناثر دماؤه على الجدار ، كان (أدهم) يتجاوزه بوثبة كبيرة ، ثم يواصل طريقه نحو القاعة الخلفية ، التى تعالى منها صوت ضحكك (أيجور) الغليظة ، وهو يهتف متباهيًا :

- لقد أطلقت عليه النار من الهليكوبتر .. مرتين ..

وقهقه فى ظفر ، قبل أن يضيف فى زهو :

- ولقد رأيته ، عبر المنظار المقرّب لبندقيتى .. رأيت ذلك المصرى يسقط جثة هامدة ، كجوال من البطاطس ، و ...

ولم يكن من الممكن أن يحتمل (أدهم) كلمة إضافية ..

لذا ، فقد اقتحم القاعة الخلفية الصغيرة كإعصار ..

إعصار حقيقى ..

ومع اقتحامه العنيف ، استدار إليه الرجال الأربعة ، الذين يحيط بهم (أيجور) نفسه ، كعلامة للزعامة والتباهى ، لكن (أدهم) لم يمنحهم حتى فرصة التفكير فيما يحدث ، فقد أزاح أقربهم إليه بضربة من حافة يده على عنقه ، انبعث منها صوت فرقعة مخيفة .. ثم وثب يركل الثانى فى أنفه ، لتتفجّر منه الدماء فى

عنف ، فى نفس اللحظة التى اندفعت فيها قبضته ، لتحطم أسنان الثالث بلكمة كالصاعقة ، أسقطت الرجل فاقد الوعى عند قدميه ..

وفى ارتياع مذعور ، استلّ (أيجور) مسدسه ، وهو يزيح عنه تلك الحسناء ، التى كان يحتويها بين ذراعيه منذ لحظة واحدة ، هاتفًا :

- بحق الشيطان ، ما الذى ..

قبل أن يكتمل هتافه ، ركل (أدهم) الرجل الرابع بين فخذيه ، ثم جذبه إليه فى قوة ، وصنع منه درعًا ، استقبل عليه رصاصات (أيجور) الثلاث ، وهو يندفع نحو هذا الأخير ، ثم دفعه إليه بكل قوته ..

ومع سقوط (أيجور) والرجل أرضًا ، انحنى (أدهم) يقبض على عنق الأوّل ، بأصابع من فولاذ ، ثم يجذبه إلى أعلى بقوة مخيفة ، ليجبره على الوقوف على قدميه ، قبل أن يمسك معصمه ، ويلويه على نحو أجبر الروسى الضخم على إفلات مسدسه ، وهو يطلق صرخة ألم عنيفة ..

وبكل غضب الدنيا ، صاح به (أدهم) :

- إذن فأنت أطلقت النار عليه ..

وعلى الرغم من قوة (أيجور) وغلظته ، إلا أن ماراه ، منذ اقتحم (أدهم) المكان ، جعله يهتف مذعوراً :

- كنت مضطراً .. لقد أمرنى الزعيم بـ ...

قبل أن يتمّ عبارته ، تراجعت قبضة (أدهم) إلى منتهاها ، ثم انقضت بكل قوتها ، فى لكمة خطافية ، هوت على فك (أيجور) الضخم كألف ألف قنبلة ..

وتفجّرت الدماء من بين شفتى (أيجور) ، وتناثرت مع أسنانه المحطمة ، وهو يصرخ :

- كيف تجرؤ .. كيف ..

ولم يتم صرخته قط ..

ففجأة ، تفجّر فى كيانه كله رعب هائل ، وهو يحدّق فى وجه (أدهم) بكل ذهول الدنيا ..

فعلى الرغم من أن وزنه كان يبلغ ضعف وزن (أدهم) تقريباً ، إلا أن عضلات هذا الأخير الفولاذية رفعته لعشرة سنتيمترات على الأقل عن الأرض ، وهى تلصقه بالجدار ..

ثم هوت قبضة (أدهم) على فكه مرة أخرى ..

هوت كالقنبلة ..

بل كالصاعقة ..

أو هوت ككليهما معاً ..

ودار رأس (أيجور) فى عنف ..

وسالت الدماء وقطع الأسنان من بين شفتيه ، و(أدهم) يسأله ، بكل صرامة الدنيا ، وعلى نحو كادت الدماء تتجمّد معه فى عروقه :

- مارقم الهاتف الخاص للوغد (يورى إيفانوفيتش) ؟!

هتف (أيجور) :

- لايمكننى أن أخبرك ، فمن المستحيل أن ...

بتر عبارته ، ليطلق صرخة ألم هائلة ، عندما ركلت قدم (أدهم) قصبة ساقه بعنف رهيب ..

وبكل غضبه وصرامته ، كرّر (أدهم) :

ـ رقم (يورى) الخاص ..

لهث (أيجور) فى عنف ، وهو يقول :

ـ سيقتلنى .. الزعيم سيقتلنى لو ...

مرة أخرى بتر عبارته ، وهو يطلق صرخة حملت كل آلام الدنيا ، عندما لوى (أدهم) معصمه بزاوية مخيفة ، تحطمت معها عظامه بصوت مسموع ..

وانهار (أيجور) تماماً ، وهو يقول :

ـ توقف .. سأخبرك .. سأخبرك بكل الأرقام التى أعرفها فى الدنيا .

أبلغه بالفعل برقم الهاتف المحمول الخاص لـ (يورى إيفانوفيتش) ، فتطلع (أدهم) إلى عينيه مباشرة ، وقال :

ـ لو أنك تخدعنى فسوف ..

صاح (أيجور) فى رعب :

ـ إنها الحقيقة .. أقسم لك إنها الحقيقة ..

ثم صرخ فجأة :

ـ اقتله يا رجل .. اقتله ..

كان أكبر خطأ ارتكبه فى حياته ، هو أن أطلق صرخته هذه ، قبل أن يطلق حارسه ، الذى استعاد وعيه ، رصاصاته على ظهر (أدهم) ..

فنفس الضجيج والموسيقى الصاخبة ، اللذين ينبعثان من قاعة الملهى الرئيسية ، واللذين أخفيا دوى الرصاصات وصرخات الألم ، منعا (أدهم) من الانتباه إلى ما يحدث خلفه ..

ولكن صرخة (أيجور) نبهته ..

وبكل سرعته وقوته ، استدار مع جسد (أيجور) الضخم ..

وانطلقت رصاصات الحارس ..

واخترقت كلها جسد (أيجور) ، الذى اتسعت عيناه فى ألم ورعب ، وانطلقت من حلقه شهقة عجيبة ، أشبه بخوار ألف ثور ، وتدفقت الدماء من بين شفتيه فى غزارة ، فقال (أدهم) فى بغض :

- أين ضحكاتك الساخرة المزهوّة الآن أيها الوغد ؟! ألا يبدو الموت مضحكاً ، عندما تنظر إليه من هذا الجانب ؟!

تراخى جفنا (أيجور) ، وعيناه تفقدان بريق الحياة ، فى حين نهض حارسه الخاص الأخير فى عصبية ، وهو يصوّب مسدسه مرة أخرى نحو (أدهم) ، ولكن هذا الأخير ألقى إليه جسد رئيسه الضخم ، قبل أن يثب نحوه ، هاتفاً :

- أتريد حماية رئيسك الوغد .. فليكن .. ها هو ذا .

ارتبك الحارس ، ورصاصاته تطيش فى الهواء ، عندما ارتطم به جسد (أيجور) الضخم ، وقبل أن يستعيد توازنه ، أصابته ركلة قوية من (أدهم) ، فى

فكه مباشرة ، طار معها مسدسه ، وسقط إثرها فاقد الوعى ..

وبنظرة نارية ، أدار (أدهم) عينيه فيما حوله ، قبل أن يستقرّ بصره عند جثة (أيجور) ، فغمغم فى ارتياح :

- ارقد بسلام يا (علاء) .. لقد دفع قاتلك الثمن .

قالها ، ثم التقط عشر زجاجات خمر من المكان ، ومزّق قطعة من قماش الستائر ، و ...

واتجه نحو القاعة الرئيسية للملهى ..

كان هناك حشد كبير من الرجال والنساء ، يرقصون رقصات محمومة ، على موسيقى صاخبة ..

ولكن فجأة ، توقفت الموسيقى ، وانبعث من المكبرات المنتشرة فى المكان صوت صارم ، يقول :

- انتباه لجميع الرواد .. أمامكم دقيقة واحدة لإخلاء المكان ، لأنه سيتم إغلاقه .. وإلى الأبد .

بدت الدهشة على وجوه الجميع ، وهم يتطلعون إلى تلك الحجرة الزجاجية الداكنـة ، أعلى قـاعة الرقـص الأساسية ، وهتف أحد رجال (المافيا) فى غضب :

ـ أى عبث سخيف هذا ؟!

أتاه الجواب على شكل زجاجة مشتعلة ، طارت من الحجرة الزجاجية العلوية ، لترتطم بالبار الرئيسى ..

ثم حدث الانفجار ..

لسان من اللهب ارتفع فى المكان ، مقترناً بدوى انفجار الزجاجة ، وارتفعت معه موجة هائلة من الرعب والذعر ، جعلت الجميع يعدون خارج المكان ، فيما عدا قلة من رجال (المافيا) ، استلوا مسدساتهم ، وراحوا يطلقون رصاصاتها فى غضب مجنون ، نحو الحجرة الزجاجية العلوية ..

وعلى الرغم من أن زجاجها قد تحطّم فى عنف ، وتناثر فى كل مكان ، إلا أن زجاجتين مشتعلتين أخريين اندفعتا عبرها ، وانفجرتا وسط رجال (المافيا) الروسية مباشرة ..

وانطلقت صرخات المجرمين ، والنيران تشتعل فى ثيابهم وأجسادهم ، وانطلقوا يعدون فى كل مكان فى ذعر ..

ولكن هذا لم يمنع سقوط زجاجة مشتعلة رابعة ..

وخامسة ..

وسادسة ..

ودوت الانفجارات ..

واشتعلت زجاجات الخمور فى المكان ..

ودوت انفجارات أخرى ..

وأخرى ..

وأخرى ..

وعلى الرغم من أن المكان قد تحول إلى جحيم حقيقى ، غادره (أدهم) فى هدوء ، وعيناه تحملان نظرة صارمة مخيفة ..

نظرة امتزجت صرامتها بغضبها ..

نظرة رجل قرّر أن يخوض معركته مع الذئاب بأنياب ومخالب الذئاب ..

ومن خلفه ، دوى الانفجار ..

انفجر مخزون الخمور فى قبو الملهى ، ونسف معه المبنى ، بوهج أضاء المنطقة كلها ، وأعلن أن المدينة الروسية العريقة تشهد مولد عهد جديد ..

عهد الحرب بين ذئب وذئاب ..

ذئاب من (روسيا) ..

وذئب من (مصر) ..

ذئب يُدعى (أدهم) ..

(أدهم صبرى) .

* * *

٦ ـ الغضب ..

انعقد حاجبا (يورى إيفانوفيتش) فى شدة ، وهو يراجع كشف خسائر الليلة السابقة ، وحملت لهجته كل غضب الدنيا ، وهو يلقى الورقة من يده ، هاتفًا :

ـ الملهى الليلى .. نادى المقامرة .. مكتب المراهنات .. خمسة من القتلى ، وأكثر من مائة من المصابين !! هذا مستحيل ! كيف يمكن أن يفعل رجل واحد كل هذا ، فى ليلة واحدة ؟!

زفرت (زوشا) فى توتر ، وهى تغمغم :

ـ لقد فعلها بالفعل .

هبَّ من مقعده ، صائحًا فى حدة :

ـ نجاحه فى كل هذا يعنى أنه لدينا قصور شديد فى نظم الأمن ، فى الأماكن التابعة لنا .. لقد أعمانا الغرور ، وخدعتنا الثقة الزائدة ، وتصورنا أن أحدًا لن

يجرؤ على المساس بنا ، فتراخينا ، وترهلنا ، وفقدنا مرونتنا وحزمنا .

قالت (زوشا) فى حذر :

ـ الرجل ليس عادياً أيضاً يا (يورى) .. لقد سمعت بنفسك الرجال يصفون أسلوبه ، وجرأته الخرافية ، وقدراته التى أذهلتهم ، وأصابتهم بالرعب ، فعجزوا عن مواجهته ، بكل قوتهم وأسلحتهم ، دون أن يطلق رصاصة واحدة .

غمغم فى حدة غاضبة :

ـ مستحيل !

زفرت مرة أخرى ، قائلة :

ـ هذا شأنك .

رمقها بنظرة غاضبة ، قبل أن يسألها بغتة فى حدة :

ـ لماذا تتصورين أنه قد فعل كل هذا ؟!

حدقت فيه بدهشة حذرة ، قبل أن تقول :

ـ إنه غاضب ، و ...

قاطعها فى حدة ، وهو يلوّح بذراعه كلها :

ـ هراء .

ثم أشعل سيجارة ، فى عصبية شديدة ، ونفث دخانها فى عصبية أكثر ، قبل أن يقول :

ـ إنه يتحدانى .

ارتفع حاجباها ، مع اتساع عينيها فى دهشة ، وهى تكرّر :

ـ يتحداك ؟!

ثم هزّت كتفيها ، مضيفة فى حيرة حذرة :

ـ ولكن كيف ؟! إنه يعلم أن كل رفاقه فى قبضتك .

أشار بسبّابته ، قائلاً فى حدة :

ـ بالضبط .

ثم عاد يسحب نفسًا من سيجارته ، ويطلقه كفوهة بركان غاضب ، قبل أن يتابع فى عصبية :

- هذه هى النقطة .. إنه يخبرنى أن هذا لن يوقفه ، ولن يمنعه من القتال .. بل إنه سيدفعه إلى تصعيد الموقف .. وبمنتهى العنف .

قالت فى سرعة :

- اقتل أحد رفاقه إذن .

أجابها فى حدة :

- هذا لن يوقفه .

ثم نفث دخان سيجارته مرة أخرى ، متابعًا فى توتر :

- بل سيضاعف من عنفه ، وسيجشمنا خسائر أكثر وأكثر ، هذا بالإضافة إلى ضياع هيبتنا وسمعتنا ، فى كل مكان من (روسيا) ، من أقصاها إلى أقصاها .

بدت عليها علامات التفكير بضع لحظات ، قبل أن تندفع قائلة :

- هدده بقتلهم فقط إذن .

رمقها بنظرة طويلة ، ثم انعقد حاجباه فى تفكير عميق ، وعاد فى شرود إلى مقعده الكبير ، فى مخزن مكتبة المدينة ، وجلس ينفث دخان سيجارته لبضع دقائق فى صمت ، قبل أن يلتفت إليها ، قائلاً :

- أنت عبقرية يا (زوشا) .

قالت فى دهشة :

- حقًا ؟!

اندفع يقول فى حماسة :

- أكبر خطأ ، يمكن أن يقع فيه المقاتل ، هو ألا يترك لخصمه ما يمكن أن يخسره ، ففى هذه الحالة يتحول إلى وحش كاسر ، يقاتل بلا أمل فى النجاة ، فقط لينتقم ممن جرده من كل شىء ..

لذا ، فالعبقرية أن نترك للخصم شيئًا يمكن أن يخسره .

غمغمت ، دون أن تستوعب ما يعنيه :

ـ بالتأكيد ..

هبّ من مقعده فى حماسة ، قائلاً :

ـ دعينا نستعد أسلوب ذلك المصرى .. سنرسل إليه رسالة عبر (التليفزيون) .

مال رأسها إلى الأمام ، وهى تقول فى دهشة :

ـ عبر ماذا ؟!

أجابها بنفس الحماسة :

ـ عبر (التليفزيون) .. أقوى جهاز إعلامى فى العصر الحديث .. سنستعين نحن أيضًا بـ (ناديا فيدروفيتش) .

سألته فى ذهول مستنكر :

ـ وهل ستظهر هكذا ، على الملأ ، فقط لتبث له رسالة ؟!

هزّ رأسه نفيًا ، وهو يقول :

ـ ومن قال إنه من الممكن أن أرتكب حماقة كهذه ؟!

سألته فى حيرة :

ـ من سيظهر مع (ناديا) إذن ؟!

أشار إليها بسبّابته ، فى صرامة شديدة ، قائلاً :

ـ أنت .

انتفض جسدها فى عنف ، وهى تهتف :

ـ أنا ؟!

انعقد حاجباه ، على نحو جعله أشبه بالوحوش ، وهو يقول :

ـ نعم .. أنت يا (زوشا) .

قلبت كفيها فى عصبية ، وهى تقول فى حدة :

ـ ولكن هذا سيكشف أمرى لكل رجل أمن فى (روسيا) كلها ، وعلى نحو سافر .

قال فى صرامة :

ـ خطأ ..

ثم عاد إلى مقعده ، ونفث دخان سيجارته المحتضرة ، متابعًا :

ـ سنلعبها على نحو يروق للمشاهدين ، ويبهرهم دومًا .

سألته فى عصبية زائدة :

ـ وكيف هذا ؟!

تألقت عيناه ، وهو يبتسم فى تلذذ ، ملقيًا سيجارته على اتساع يده ، وقال وكأنما يستمتع بكل حرف ينطق به :

ـ سترتدين قناعًا .

خُيِّل إليها أن جنونه قد بلغ مبلغه ، وهى تحدق فيه ، متمتمة :

ـ قناعًا ؟!

أومأ برأسه فى بطء ، مجيبًا بنفس الاستمتاع :

ـ نعم .. قناعًا .. تمامًا كأبطال القصص المصوّرة الشهيرة .. المرأة الوطواط ، وال ...

قاطعته ، دون أن يمكنها كبح دهشتها المستنكرة :

ـ (يورى) .. أأنت جاد ؟!

اشتعلت عيناه غضبًا ، وهو يلتفت إليها ، صائحًا فى وحشية :

ـ ألايمكنك إدراك هذا ؟!

قالت فى حدة :

ـ إدراك ماذا ؟! هل تتصوَّر أننى سأظهر على شاشة (التليفزيون) ، فى أشهر برنامج صباحى فى (روسيا) ، وأنا أرتدى قناعًا هزليًا ، لأوجه رسالة إلى ذلك المصرى ؟!

وثب من مقعده بغتة ، وانقضّ عليها دون مقدمات ، وفوجئت بفوهة مسدسه الباردة تلتصق بعنقها ، وهو يقول فى شراسة منقطعة النظير :

ـ نعم .. هذا ما أتصوّرك عليه .

اتسعت عيناها فى هلع ، وهى تغمغم فى اضطراب شديد :

- فليكن يا (يورى) .. فليكن .. مادمت تريد هذا .

تحسس بشرة وجهها بظهر يده اليسرى ، دون أن يرفع فوهة مسدسه عن عنقها ، وهو يقول :

- ستبدين فاتنة فى ذلك القناع .

ازدردت لعابها فى صعوبة ، متمتمة :

- بالتأكيد يا (يورى) .. بكل تأكيد .

تطلع إلى عينيها مباشرة ، بنظرة كانت توقف قلبها رعبًا ، ثم لم يلبث أن مال بغتة ، يطبع قبلة على خدها ، وهو يزيح فوهة مسدسه ، متمتمًا :

- كنت أعلم أنك لن تخذلينى أبدًا .

كانت تنشب أظفارها فى عنقه ، عندما ابتعد عنها فى هدوء وكأنه لم يفعل شيئًا ، وأولاها ظهره ، وهو يلوّح بيده ، قائلاً :

- فهذه هى الوسيلة الوحيدة ، للاتصال بذلك المصرى ، و ...

قبل أن يتمّ عبارته ، ارتفع رنين هاتفه المحمول ، فالتقطه بحركة آلية سريعة ، وقال فى صرامة :

- (يورى) ..

فوجئ بصوت أكثر صرامة يكمل :

- (يورى إيفانوفيتش) .. الوغد دائمًا ، والزعيم حاليًا لبهلوانات (المافيا) الروسية ، الذين يستغرق تحطيمهم وقتًا أقل بكثير ، من الوقت الذى يستلزمه بناؤهم ، وتدريبهم على تلك الحركات الاستعراضية المضحكة .

كانت أصابع (يورى) تحطّم هاتفه المحمول ، وهو يصرخ :

- إنه أنت ..

أجابه (أدهم) بلهجة عجيبة مستفزة ، تجمع بين الصرامة والسخرية :

- بالطبع هو أنا أيها الوغد .. من غيرى يمكن أن يلوّث أذنه بسماع صوتك .



كانت أصابع (يورى) تحطّم هاتفه المحمول ، وهو يصرخ :
- إنه أنت ..

تضاعف غضب (يورى) ، وهو يقول :

- أنت غبى أيها المصرى .. تثير أعصابى ، وكل رفاقك فى قبضتى .

أدهشته تلك الضحكة العالية المجلجلة ، التى انطلقت من بين شفتى (أدهم) ، والتى نقل الهاتف المحمول كل نبرة السخرية فيها ، قبل أن يقول صاحبها :

- بالضبط .. هذا هو أنت .. مجرّد مهرّج شوارع ، يتظاهر بالذكاء والعبقرية ، وعندما يواجه أول تحدٍّ ، يستعيد على الفور طبيعته الهمجية الأولى ، ويهدّد بقتل العزل ؛ لأنه عاجز عن الظفر بخصمه .

كان صوت (أدهم) عاليًا ، حتى إنه بلغ مسامع (زوشا) ، التى هتفت فى عصبية :

- (يورى) .. إنه يحاول استفزازك .

التقط (يورى) نفسًا قويًا ، فى محاولة للسيطرة على أعصابه ، وهو يختطف ورقة من أمامه ويخط عليها بضع كلمات فى سرعة ، ثم يدفعها نحو (زوشا) ، وهو يقول :

- وماذا عما فعلته أنت بمنشآتنا ؟! ألم يكن صورة للهمجية ؟!

قرأت (زوشا) الورقة فى سرعة، وميَّزت الكلمات القليلة ..

«اطلبى من خبير الاتصالات تعقُّب هذه المحادثة ..»

وانطلقت لتنفيذ الأمر، و(أدهم) يقول فى سخرية:

- بل كانت مجرَّد بداية أيها الوغد .. بداية لحرب لن تهدأ، حتى أنال منك، كما فعلت بأخيك.

صرخ (يورى) فى غضب:

- محال.

ثم انتبه إلى أنه قد فقد السيطرة على أعصابه، فالتقط نفسًا عميقًا آخر، وقال فى صرامة، لم يستطع منع عصبيته من التسلُّل إليها:

- لقد نلت من (إيفان) لأنه كان غبيًّا .. يولى المظاهر عناية أكثر مما ينبغى، ويتصوَّر دومًا أنه

الأكثر ذكاءً، وأن أحدًا لن يظفر به أبدًا، أما أنا فأختلف تمامًا.

قال (أدهم) ساخرًا:

- بالتأكيد، فأنت أكثر غباءً.

عضَّ (يورى) شفته السفلى فى غيظ، وعلى الرغم من هذا، فقد حافظ على النبرة الصارمة فى صوته، وهو يقول:

- تعتقد أنك خليف الظل أيها المصرى .. أليس كذلك ؟! فليكن .. إننى لا أميل مثلك إلى الدعابات، ولكن حياة الشوارع، التى تتحدث عنها، علمتنى أن أفضل أسلوب لتبادل أية مصالح فى الدنيا، هى المقايضة .. تعطى شيئًا، وتأخذ آخر بالمقابل.

قال (أدهم) بنفس السخرية:

- أنا أؤمن به تمامًا، فلقد حصلت على رقم هاتفك الخاص، مقابل لكمة فى فك أحد أوغادك، وكسر فى معصمه فحسب.

كظم (يورى) غيظه ، وهو يواصل ، وكأنه لم يسمع تعليقه :

- لذا ، فأنا أعرض عليك نوعًا من المقايضة .. سأعيد رفاقك كلهم ، وأسمح لهم بمغادرة (موسكو) أيضًا ، مقابل حياتك أنت .

قاطعه (أدهم) فى سخرية :

- وماذا عن حياتك أنت ؟!

قال (يورى) فى دهشة :

- ماذا ؟!

تحوّلت سخرية (أدهم) إلى صرامة شديدة ، وهو يقول :

- ألم تفهم بعد أيها الوغد ؟! إننى أعرض عليك مقايضة مختلفة .. رفاقى كلهم ، مقابل حياتك أنت ..

هتف (يورى) فى غضب :

- إنك لن ..

قاطعه (أدهم) بصرامة أكثر :

- مس شعرة واحدة ، من رأس شخص واحد منهم ، وأقسم أن أجدك ، حتى لو اختبأت فى أعماق الجحيم ، وأن أمزّقك إربًا .. وبلا رحمة .

اتسعت عينا (يورى) فى دهشة ، وانفغر فاه فى استنكار ، ولكن (أدهم) استعاد نبرته الساخرة ، وهو يقول :

- وبالمناسبة .. أخبر خبير اتصالاتكم الفنلندى أن الوقت لن يسعفه لتحديد موقعى ، ولكننى أتحدث من هاتف عام ، بالقرب من محطة قطار (موسكو) .

قالها ، وأطلق ضحكة ساخرة ، ثم أنهى المحادثة ، فى نفس اللحظة التى اندفعت فيها (زوشا) إلى المكان ، وهى تلهث فى انفعال ، هاتفة :

- لقد اتصلت بالخبير ، ولكنه يقول : إن الوقت لن ..

قاطعها بإشارة صارمة عصبية من يده ، وهو يخفض هاتفه المحمول فى بطء ، وكل لمحة فى وجهه تشف عن التوتر والتفكير العميقين ..

بل والغضب أيضًا ..

فبقدر ما أثارت مكالمة (أدهم) توتره وقلقه ، أغضبته هذه المشاعر بشدة ..

أغضبته ، وجعلته يعيد حساباته ، فيما يتعلق بالمصريين ، الذين يضع يده عليهم ..

لقد كان من الضرورى أن يتخذ قرارًا بشأنهم ..

قرارًا حاسمًا ..

وسريعًا ..

وعندما استقرّ رأيه ، واتخذ قراره ، استدار إلى (زوشا) ، قائلاً فى صرامة قاسية ، آمرة :

- اسمعينى جيدًا ، ونفذى ما سآمرك به بالضبط .

واستمعت إليه (زوشا) ، بكل الاهتمام والانتباه ..

فالقرار الذى اتخذه كان غريبًا ..

وحازمًا ..

وحاسمًا ..

للغاية ..

* * *

« أنت تلعب بالنار يا سيادة (العميد) .. »

نطق (أسعد) العبارة ، فى عصبية لم يستطع كتمانها ، فانعقد حاجبا (أدهم) ، وهو يجلس على ذلك المقعد المواجه للنافذة ، قائلاً فى صرامة :

- أنا أعرف ما أفعله .

قال (أسعد) فى توتر :

- ولكنك تشعل الأمور بدلاً من تهدئتها ، وتستفز (يورى) هذا بمنتهى العنف ، على الرغم من أن الكل فى قبضته .

صمت (أدهم) بضع لحظات ، قبل أن يجيب ، دون أن يلتفت إليه :

- مشكلتك يا (أسعد) هى أنك تتحدث عن (يورى إيفانوفيتش) وتقييمه باعتباره آدميًا ، وتتوقع منه ردود فعل آدمية منطقية .

ثم استدار إليه بحركة حادة ، مضيفًا :

- وهذا أكبر خطأ .

بُهتَ (أسعد) للأسلوب الحاد ، فتمتم :

ـ خبراء علم النفس علمونا أن ..

قاطعه (أدهم) فى صرامة :

ـ إنه ذئب .

ردّد (أسعد) بدهشة عارمة :

ـ ذئب ؟!

أجابه (أدهم) فى حزم :

ـ نعم .. ذئب يقود قطيعًا من الذئاب المفترسة ، لاتدرك من حقائق الدنيا كلها سوى منطق القوة ، وشريعة الغاب ، وحق الأقوى فى افتراس الأضعف ، وأمثال هؤلاء تخطئ لو تعاملت معهم بالمنطق .. فقط بالقوة .. أثبت للذئاب أنك تمتلك أيضًا أنيابًا ومخالب ، وسيخشون ليس الاقتراب منك ، وإنما مجرّد ذكر اسمك .

قال (أسعد) فى توتر :

ـ وماذا لو دفعهم الغضب إلى افتراس رفاقنا ؟!

هزّ (أدهم) رأسه فى قوة ، قائلاً فى حزم واثق :

ـ مع هذا الموقف لن يفعلوا .

هتف (أسعد) :

ـ وما الذى يجعلك واثقًا هكذا ؟!

أجابه فى صرامة :

ـ طبيعة الذئاب .

وصمت لحظة ، ثم أضاف فى حزم :

ـ الذئب حيوان دموى مفترس ، ولكنه يخشى على حياته ، مثل أى كائن آخر ، وهو لايرحم فريسة ضعيفة ، تقع تحت أنيابه ومخالبه ، ولكنه سيتردّد طويلاً ، قبل أن يتصدّى لخصم قوى .

لوّح (أسعد) بسبابته ، قائلاً :

ـ تذكّر ياسيادة العميد أننا نتحدّث عن ذئب غير مستقر عقليًا .. ذئب يتأرجح بين العبقرية والجنون .

أجابه (أدهم) :

ـ لو أن هذا الشخص هو الذى يدير الأمر ، منذ اللحظة الأولى ، كما توحى الأحداث ، فهو ليس مجنونًا يتمتع بلمحة عبقرية ، بل عبقرى مشوش بلمحة جنون ، وأمثال هؤلاء حذرون للغاية ، بدليل تغيير مواقعه على نحو مستمر ، ولأنه كذلك ، فهو لن يقدم على أية خطوة عنيفة ، إلا بعد التأكد من أنها لن تضعف موقفه ، بأى حال من الأحوال .

قال (أسعد) فى حدة :

ـ مسألة وقت فحسب .

قال (أدهم) فى سرعة :

ـ وهذا كل ما أحتاج إليه .

ثم زفر بكل توتر الدنيا ، مضيفًا :

ـ الوقت .

حدق (أسعد) فى وجهه بضع لحظات فى دهشة ، قبل أن يهز رأسه ، متسائلاً فى حيرة :

ـ هل يمكنك أن تشرح لى ما يدور فى ذهنك بالضبط يا سيادة العميد ؟!

مطّ (أدهم) شفتيه ، وهزّ رأسه فى بطء ، مغمغمًا :

ـ هذا يحتاج إلى وقت طويل يا (أسعد) .. طويل للغاية .

تطلّع إليه (أسعد) بضع لحظات أخرى ، ثم قال فى توتر :

ـ ولكن ما تفعله عنيف للغاية .. إنه يجعل الأمر أشبه بحرب عصابات ، وليس بعملية مخابرات منظمة .

أجابه (أدهم) فى حزم :

ـ بالضبط .. وهذا يجعل التنصّل من كل ما يحدث أمرًا يسيرًا للغاية ، بالنسبة لأى دبلوماسى محنك .

قالها ، ونهض يثبت تنكره ، ويدس فى جيبه واحدة من بطاقات الهوية الزائفة ، التى صنعتها أصابع (قدرى) الذهبية ، فسأله (أسعد) فى توتر خافت :

- أن تخبرنى بخطوتك التالية على الأقل ؟!

اعتدل (أدهم) ، والتفت إليه ، قائلاً :

- من سمات الذئاب ، أنها تشعر بالقوة أكثر ، وتتضاعف وحشيتها وشهوتها للدماء ، عندما تسير فى قطعان مترابطة ، وأى صياد محترف يعلم أن تشتيت القطيع هو أول وأهم خطوة ، لتحقيق السيطرة عليه .

بدت دهشة حائرة على وجه (أسعد) ، وهو يغمغم :

- وما الذى يعنيه هذا ؟!

مال (أدهم) نحوه ، قائلاً :

- إجابة هذا السؤال تستلزم إلقاء سؤال آخر .. لماذا فى رأيك تحدثت مع (يورى إيفانوفيتش) ؟

أجابه (أسعد) فى حذر :

- لإعلان تحديك له .

قال (أدهم) فى هدوء عجيب :

- فقط ؟!

تساءل (أسعد) فى حيرة أكثر :

- وماذا أيضًا ؟!

اعتدل (أدهم) ، قائلاً فى حزم :

- هذا ما ستفصح عنه الخطوة القادمة يا رجل .

وقبل أن يلقى (أسعد) سؤالاً آخر ، كان (أدهم) قد تحرك فى خفة ، وغادر المنزل الآمن الاحتياطى ، مغلقًا الباب خلفه فى هدوء ، لايمكن أن يعبِّر عن حقيقة ما يعتمل فى أعماقه ..

فمهما كان ما يسعى إليه ، ومهما كانت خطته ، فهو يجازف بأهم شىء فى حياته كلها ، ويراهن على أغلى شىء فى عمره كله ..

حياة كل من يحب ..

بلا استثناء ..

* * *

٧- روح القطيع ..

ارتسم غضب الدنيا كله على وجه الرئيس الروسى، وهو يستقبل مدير المخابرات فى مكتبه، قائلاً فى صرامة :

- هل لى أن أفهم ما الذى يحدث هنا ؟! قتال، وصراعات وحرائق، والانفجارات فى قلب (موسكو) !! هل اشتعلت الحرب العالمية من جديد، أم أنكم عاجزون عن إقرار الأمن فى العاصمة ؟!

بدا مدير المخابرات شديد التوتر، وهو يقول :

- إقرار الأمن الداخلى ليس مسئوليتنا يا سيادة الرئيس .. إنه مسئولية الشرطة وجهاز الأمن العام .. ثم إن كل ما يحدث يخص (المافيا)، التى عجزت كل أجهزة الدولة عن كبحها .

لوّح الرئيس بذراعه كلها فى غضب، هاتفًا :

- ثم ماذا ؟! هل قررت الدولة الاستسلام لسطوة تلك المنظمة الإجرامية الحقيرة ؟!

قال مدير المخابرات فى عصبية :

- سيادة الرئيس .. إننا نبذل قصارى جهدنا .

هتف الرئيس فى غضب :

- حقًا ؟! وماذا عما حدث لديكم إذن ؟! ماذا عن دخول ذلك المصرى إلى مقركم، وخداعكم جميعًا، ثم الخروج بأسير لديكم، دون أن تمسوا شعرة واحدة منهما ؟!

امتقع وجه مدير المخابرات، فتابع الرئيس فى حدة :

- هل تصورتم أنكم تستطيعون إخفاء أمر كهذا ؟!

تمتم المدير :

- الواقع أن ..

ولكن الرئيس تابع، دون يمنحه فرصة للتعليق :

- وماذا عن تلك الموقعة الجوية السخيفة، التى أسفرت عن سقوط ثلاث جثث، فوق رءوس المواطنين ؟

لم يجد مدير المخابرات ما يقول ، فعض شفته السفلى فى مرارة ، والرئيس يكمل فى غضب :

- ثم كانت الطامة الكبرى ، عندما اختفت إحدى الجثث الثلاث من المشرحة التابعة لسلطات التحقيق الرئيسية .. هل تدرك ما الذى يعنيه كل هذا ؟!

تطلّع إليه مدير المخابرات فى حذر ، دون أن يحر جوابًا ، فتابع الرئيس فى حدة شديدة :

- يعنى أن الفساد قد استشرى فى المجتمع ، حتى بلغ مرحلة ، يستحيل السكوت عنها .

غمغم مدير المخابرات :

- سيادة الرئيس .. إننا ..

قاطعه الرئيس فى صرامة :

- إنكم تحتاجون إلى إعادة تنظيم يا رجل .. سلطات الأمن كلها تحتاج إلى إعادة تأهيل ، من القاع إلى القمة .

شحب وجه مدير المخابرات ، وهو يقول فى عصبية :

- سيادة الرئيس .. الظروف التى نمرّ بها غير طبيعية ، ومن الظلم أن تحاسبنا عليها ، فأنت رجل مخابرات سابق ، ولاريب فى أنك تعرف جيّدًا من هو (أدهم صبرى) .. وما هى قدراته وإمكاناته ، و ...

قاطعه الرئيس فى حدة :

- ولكننا دولة كاملة يا هذا .. دولة بكل أجهزتها ، ونظم أمنها ، ومن العار أن نعجز عن إيقاف رجل واحد .

زفر مدير المخابرات ، متمتمًا فى مرارة :

- إننا نبذل قصارى جهدنا ، و ...

قبل أن يتمّ عبارته ، ارتفع رنين هاتفه الخاص بغتة ، بنغمة توحى بأهمية وخطورة الموقف ، فالتقطه فى سرعة ، وقال فى توتر :

- من المتحدّث ؟

انعقد حاجبا الرئيس فى شدة ، عندما رأى أصابع مدير المخابرات تقبض على الهاتف فى عنف ، ورآه يكاد يقفز من مكانه ، هاتفًا :

ـ حقًا ؟!

سأله الرئيس فى توتر :

ـ ماذا هناك بالضبط ؟!

رفع مدير المخابرات إليه عينين متألقتين ، وهو يقول فى انفعال جارف :

ـ رجالنا كشفوا مخبأه .

انعقد حاجبا الرئيس فى شدة ، وهو يقول :

ـ مخبأ من ؟!

هتف مدير المخابرات فى حماسة :

ـ مخبأ (أدهم) .. (أدهم صبرى) .

واتسعت عينا الرئيس عن آخرهما ..

فقد كان الخبر مباغتًا ومدهشًا .. للغاية ..

* * *

لم يكد الهاتف الجوّال لـ (يان جوجول) ، أحد زعماء (المافيا) الروسية ينطلق ، حتى التقطه هذا الأخير بحركة آلية ، قائلاً :

ـ من المتحدث ؟!

أتاه صوت مألوف ، يقول فى خشونة :

ـ إنه أنا يا (يان) .

اعتدل (يان) بحركة غريزية ، وهو يهتف :

ـ (يورى) .. آ .. أعنى أهو أنت أيها الزعيم .

سمع صوت زعيمه يقول فى صرامة :

ـ كيف حال العمل يا (يان) ؟! سمعت أنه رائج هذه الأيام .

مال (يان) بمقعده إلى الخلف ، وألقى نظرة عبر الواجهة الزجاجية لحجرة مكتبه ، على الجراج الضخم أمامه ، والذى اكتظ بعشرات السيارات المسروقة ، التى انهمك جيش من الرجال فى تغيير ملامحها ، وأرقامها ، وصنع كل الأوراق المزيفة ، اللازمة لإعادة تداولها وبيعها ، وهو يبتسم ، قائلاً فى خبث :

- أخبار مبالغة يا (يورى) .. العمل لم يعد رائجًا كذى قبل .. لقد انتشرت أجهزة تأمين السيارات ، ونشط رجال الشرطة ، و ...

قاطعه صوت زعيمه فى صرامة :

- لاتتماد يا (يان) ، وإلا أغضبتنى بحق .

انعقد حاجبا (يان) ، واعتدل بمقعده ، قائلاً فى توتر :

- ماذا تريد بالضبط يا (يورى) ؟!

بدا له الصوت أكثر صرامة ، وهو يقول :

- ثلاثين فى المائة يا (يان) .

هتف (يان) فى توتر :

- ثلاثين ماذا ؟!

تضاعفت الصرامة ، مع الجواب الخشن :

- ثلاثين فى المائة من أرباح بيع السيارات المسروقة يا (يان) .. نسبة ضئيلة تمنحها لزعيمك ، مقابل مايسبغه عليك من حماية .

صاح (يان) فى غضب هادر :

- حماية ؟! أية حماية يا (يورى) ؟! هذا يمكن أن تقوله لأى تاجر عادى هنا ، ولكن ليس فيما بيننا .. إننا لانتقاضى إتاوات ، مقابل حماية بعضنا للبعض .

استعاد الصوت هدوءه بغتة ، وهو يقول :

- اتخذ قرارك فى سرعة يا (يان) ، فلست أتميز بالصبر .

هبّ الرجل من مقعده فى غضب هادر ، وهو يهتف :

- أى قرار يا (يورى) ؟! ماذا أصابك بالضبط ؟!

قال الصوت فى برود :

- قرارك يا (يان) .

صرخ (يان) بكل غضب الدنيا :

- لا .. وألف لا يا (يورى) .

بدا له الصوت أكثر برودًا ، وهو يقول فى حسم :

- فليكن يا (يان) .. تحمّل تبعة قرارك إذن .

ثم أنهى المحادثة على نحو حاد ، جعل (يان) يحدّق فى هاتفه بضع لحظات فى دهشة ، قبل أن يقول فى عصبية :

- أتحمل تبعة قرارى ؟! ما الذى يعنيه بقوله هذا ؟!

وقبل أن يكتمل النصف الثانى من عبارته ، انقضّ الإعصار ..

سيارة (لاندروفر) قوية ، اقتحمت الجراج بغتة ،

محطمة مدخله الكبير فى طريقها ، ومندفعة نحو السيارات الأخرى ..

وبغضب هادر ، صرخ (يان) :

- أوقفوا هذا الوغد .

ومع صرخته ، ضغط قائد (اللاندروفر) زرًا إضافيًا فى سيارته ، التى عدلتها معامل شركة (أميجو) بأسلوبها الخاص ..

وانطلقت رصاصات مدفعين آليين قويين ، من مقدمة (اللاندروفر) ..

ومع دوى الرصاصات ، وصوت ارتطامها بالسيارات المنتشرة فى المكان ، دبت حالة من الذعر والهلع فى نفوس جيش العاملين والفنيين ، فانطلقوا يعدون فى كل مكان ، و(يان) يصرخ فى جنون :

- أوقفوه .. أوقفوا شيطان (يورى) هذا بأى ثمن .

شق رجاله صفوف العمال الهاربين ، وهم يحملون مدافعهم الآلية ، و ...

وانفجرت واحدة من السيارات ..

ثم ثانية ..

وثالثة ..

واخترقت رصاصات (اللاندروفر) عشرات السيارات الأخرى ..

واشتعلت النيران فى المكان بعنف ..

وبكل انفعالاتهم ، راح رجال (المافيا) يطلقون نيرانهم نحو (اللاندروفر) ، وتضاعف غضبهم ألف مرة ، عندما ارتدت رصاصاتهم عن جسمها المصفح ، وهى تواصل انطلاقها فى الجراج الضخم ، وتدمير السيارات واحدة بعد الأخرى ، و(يان) يصرخ كالمجنون :

ـ أوقفوه .. أوقفوا هذا الشيطان .. أوقفوه .

تحطمت واجهة حجرة مكتبه الزجاجية فى عنف ، إثر انفجار سيارة جديدة ، فقفز يحتمى بمكتبه ، وأخفى رأسه بذراعيه ، صارخًا :

ـ ستدفع الثمن يا (يورى) .. ستدفع الثمن ..

ومع آخر حروف صرخته ، كانت (اللاندروفر) تندفع مغادرة الجراج السرى الضخم ، تاركة خلفها دمارًا لم يسبق له مثيل ، دون أن تريق نقطة دم واحدة ..

وتاركة موجة هائلة أيضًا من الغضب ..

موجة تكفى لإشعال النيران فى قلب القطيع ..

قطيع الذئاب ..

بأكمله ..

* * *

آلام شديدة عربدت فى جسد (سيرجى كوربوف) كله تقريبًا ، وهو يستعيد وعيه ، فى قسم متابعة الحالات الحرجة ، فى مستشفى (موسكو) العسكرى ..

آلام أراد أن يطلق لها ألف آهة ..

ولكنه لم يفعل ..

حتى وهو فى تلك الحالة ، بين الوعى واللاوعى ، أبت عليه كرامته أن يتأوه ..

وفى بطء ، فتح عينيه ، وتطلع إلى الممرضة التى تجلس على مسافة متر واحد منه ، منهمكة فى قراءة رواية عاطفية ، ثم قال فى برود جاف :

ـ أين أنا ؟!

انتفضت الممرضة من المباغتة ، وسقطت الرواية من يدها ، قبل أن تطلق ضحكة عصبية متوترة ، قائلة :

ـ سيِّد (كوربوف) .. لقد أفزعتنى .

قال بنفس البرود :

ـ وأنت لم تجيبى سؤالى بعد .

تنحنحت فى عصبية ، وانحنت تلتقط روايتها ، قائلة :

ـ أنت فى قسم الحالات الحرجة ياسيِّد (كوربوفا) .. لقد تعرَّضت لانفجار ، بسبب محاولة لاغتيالك ، من بعض المصريين ، و ...

اعتدل فى فراشه بحركة حادة ، قائلاً :

ـ من ؟!

انبعثت الآلام من جسده ، مع نبرة الاستنكار الحادة ، التى ألقى بها تساؤله ، فهبّت الممرضة من مقعدها ، قائلة :

ـ سيِّد (كوربوف) .. اهدأ .. لقد استعدت وعيك فورًا ، و ...

قاطعها فى صرامة :

ـ قلت : من حاول اغتيالى ؟!

أجابته ، وهى تحاول إعادته إلى فراشه :

ـ المصريون ياسيِّد (كوربوف) .. المصريون .

أزاحها مع غطاء الفراش بحركة صارمة ، قائلاً :

ـ هراء .

اتسعت عيناها ، وهى تهتف :

ـ ماذا تفعل ؟!

قاوم آلامه ، وهو يجلس على طرف فراشه ، قائلاً :

- لو أن هذا المستشفى العسكرى ، فأنتم تعرفون رقم إدارتنا .. اتصلى بهم فورًا ، وأخبريهم أن الكولونيل (سيرجى كوريوف) يطلب أحد مساعديه فورًا .

هتفت مستنكرة :

- كولونيل .. أنت فى قسم الحالات الحرجة ، ولست فى ...

قاطعها مرة أخرى فى صرامة :

- وبالمناسبة .. أمازالت ثيابى سليمة ، أم أنه على مساعدى أن يحضر طاقمًا بديلاً ؟!

هزت رأسها فى قوة ، قائلة :

- لا يمكن أن يسمح الأطباء بهذا الجنون .

انعقد حاجباه الكثان على نحو مخيف ، وهو يقول بكل صرامة :



أزاحها مع غطاء الفراش بحركة صارمة ، قائلاً :
- هراء ..

ـ هل ستنفذين ما أمرتك به ، أم أننى مضطر لجدع أنفك أولاً ؟!

حدقت فيه بدهشة مذعورة ، قبل أن تهتف فى غضب :

ـ لا .. لن يمكننى احتمال هذا .

كانت تندفع مغادرة المكان ، إلا أنه قبض على خصلة من شعرها فى قسوة ، قائلاً :

ـ فليكن .. أين أجد أقرب هاتف .

صرخت :

ـ أنت مجنون .

قال فى قسوة :

ـ هذا صحيح .. إنها مشكلة أعانيها منذ شبابى ، ولم أجد لها علاجًا بعد ..

اندفع أحد الأطباء ، وثلاثة من الممرضين إلى المكان ، إثر صرخة الممرضة ، التى لم تكد تلمحهم حتى صرخت :

ـ النجدة .. إنه مجنون .

بدا عليهم الذهول أمام المشهد العجيب ، وهتف الطبيب :

ـ كولونيل (كوربوف) .. عظيم أنك قد استعدت وعيك ، ولكن ما الذى ..

قاطعه (سيرجى) فى برود :

ـ لاشىء أيها الطبيب .. إنها عملية تنظيمية بسيطة ، كان ينبغى أن تتم بآلية وبساطة ، ولكن يبدو أن هذه الممرضة لم تعتد طاعة الأوامر بشكل جيِّد .

قالها ، وهو يجذب خصلة شعر الممرضة بقسوة أكثر ، فصرخت :

ـ النجدة .. أنقذونى من بين يدى هذا المجنون .. اتصلوا بإدارته كما يريد .. أسرعوا .

التقط الطبيب هاتفه المحمول من جيبه ، وسلمه فى توتر إلى (سيرجى) ، قائلاً :

- اهدأ ياكولونيل .. أرجوك .. حالتك الصحية لاتحتمل هذا الانفعال .. ها هو ذا هاتفى .. أجر كل ما تريد من اتصالات .

التقط (سيرجى) الهاتف بيسراه ، فى نفس اللحظة التى دفع فيها الممرضة فى قسوة بيمناه ، قائلاً :

- هذا أفضل .

ارتطمت الممرضة بأحد الأجهزة الطبية ، وأطلقت صرخة ألم مذعورة ، قبل أن ترمق (سيرجى) بنظرة غاضبة ساخطة ، ثم تندفع خارج الحجرة ، هاتفة بكل حنق الدنيا :

- إنه مجنون حتمًا .

لم يبال (سيرجى) بغضبها ، وهو يضغط أزرار الهاتف المحمول فى سرعة ، وما إن سمع صوت مساعده ، حتى قال فى صرامة :

- الكولونيل (سيرجى) .. (سيرجى كوربوف) .. نعم .. لقد استعدت وعيى .. نعم .. اصمت واستمع إلىّ جيدًا .

القسوة التى نطق بها عبارته الأخيرة ، جعلت الطبيب والممرضين يتبادلون نظرة شديدة التوتر ، فى حين تابع هو فى حزم :

- احضر إلى المستشفى العسكرى فورًا ، وأحضر معك حلة جديدة .. قلت : اصمت ، واستمع إلىّ ، ونفذ أوامرى دون مناقشة ..

قال الطبيب فى عصبية :

- كولونيل (كوربوف) .. حالتك لاتسمح لك بـ...

أدار (سيرجى) إليه عينين ناريتين ، وهو يقول فى صرامة مخيفة :

- اصمت .

ازدرد الطبيب لعابه فى توتر شديد ، و(سيرجى) يتابع ، عبر هاتفه المحمول :

- وفى طريقك إلى هنا ، أوجز فى ذهنك كل ما حدث ، منذ فقدت وعيى ، وحتى هذه اللحظة .

وعاد حاجباه الكثان ينعقدان على نحو مخيف ، وهو يضيف :

ـ فمن الواضح أن غيبوبتى قد أفقدتنى الكثير .. والكثير جدًا .

ولم يجرؤ الطبيب على الاعتراض بحرف ..

حرف واحد ..

* * *

« إنه مجنون حتمًا .. »

جرت أصابع (أسعد) على أزرار الكمبيوتر فى سرعة ، وهو ينقل برقية عاجلة جديدة إلى الإدارة فى (القاهرة) ، عبر موقع سرى خاص مؤمَّن ، على شبكة (الإنترنت) ، بأسلوب مشفر ، وشفتاه تغمغمان بالعبارة ، فى شىء من السخط والقلق ..

ففى أعماقه ، وعلى الرغم من كل ما قاله (أدهم) ، كان (أسعد) يرفض تمامًا ما يحدث فى هذه المرحلة ..

يرفض أسلوب (أدهم) ..

وعنفه ..

وغضبه ..

كان يعلم جيدًا أن ما حدث يستحق منه كل السخط والغضب ..

ولكن ما يخشاه هو رد الفعل ..

ففى رأيه ، مازال يصرّ على أن (أدهم) يلعب بالنار ..

وبمنتهى العنف ..

وهو يشعر بقلق ، يكاد يبلغ حد الفزع ، مما يمكن أن يحدث ، من جراء هذا ..

فلا أحد يمكنه أن يتنبأ برد فعل رجل نصف مجنون مثل (يورى إيفانوفيتش) ..

لا أحد على الإطلاق ..

لذا فقد قرّر استشارة (القاهرة) ..

وها هو ذا يضع اللمسات الأخيرة للبرقية ، و ..

وفجأة ، انطلق صفير خافت ، من جهاز خاص ، يتصل بالكمبيوتر مباشرة ..

وانتفض جسد (أسعد) فى عنف ..

فما حدث يعنى أن بعضهم يحاول اقتحام المنزل الآمن الاحتياطى ، بأسلوب غير مرخّص ..

وفى ساعة كهذه ، فى وضح النهار ، كان من الطبيعى استبعاد محاولات الاقتحام للسرقة ..

لا يتبقى إذن سوى احتمال واحد ..

لقد انكشف أمر المنزل الآمن الاحتياطى ..

حتمًا ..

وبسرعة مذهلة ، ومع تصاعد ذلك الصفير ، من جهاز الرصد ، استعاد عقل (أسعد) كل الإجراءات الواجب اتباعها ، فى مثل هذه الأمور ..

ثم نقل كل هذا إلى موضع التنفيذ ..

وبأقصى سرعة ..

فى البداية ، ضغط زر إرسال نص تحذيرى ، إلى الإدارة فى (القاهرة) ، عبر نفس الموقع السرى المؤمّن ..

وبعدها أشعل برنامجًا صغيرًا ، بضغطة زر آخر ..

وبسرعة البرق ، انطلق عبر الكمبيوتر فيروس شديد الفتك ، راح يدمّر قرصه الصلب ، وكل مايحويه من معلومات ..

ثم جاء دور هاتفه المحمول ..

لقد التقط قطعة ممغنطة إليكترونية خاصة ، من درج مكتبه ، وألصقها بالهاتف المحمول ، ثم ضغطها ، لتنطلق منها موجة كهرومغنطيسية خاصة ، محت ذاكرة الهاتف تمامًا ، بكل ما تحويه من أرقام ورسائل ومعلومات ..

وعندما انتقل إلى الخزانة المعدنية الصغيرة ، فى ركن الحجرة ، تناهى إلى مسامعه دوى رصاصة ،

نسفت رتاج باب المنزل الآمن الاحتياطى ، ووقع أقدام تعدو متجهة إلى حجرة مكتبه مباشرة ..

وبكل قوته ، وثب (أسعد) نحو الخزانة ، ووقع الأقدام الثقيلة يقترب ..

ويقترب ..

ويقترب ..

وفى نفس اللحظة ، التى اقتحم فيها (كواليسكى) ورجاله حجرة المكتب ، ضغط (أسعد) ذلك الزر ، فى أعلى الخزانة ..

وبكل الغضب ، صاح (كواليسكى) برجاله :

ـ أوقفوه .

تدفع الرجال نحو الخزانة فى عنف ، ولكن سحابة من الدخان تصاعدت منها فجأة ، فابتسم (أسعد) ، قائلاً :

ـ آه .. يبدو أن عطبًا قد أصاب الخزانة .

استدار إليه (كواليسكى) بنظرة غاضبة ثائرة ، فتابع فى صرامة :

ـ ولكن مهلاً .. من أنتم بالضبط ؟! ولماذا اقتحمتم منزلى على هذا النحو ؟!

عقد (كواليسكى) كفيه خلف ظهره ، وهو يقول فى غضب :

ـ ستعرف الجواب عندما تنتقل إلى قيادتنا أيها المصرى .

قال (أسعد) بنفس الصرامة :

ـ ليس قبل استدعاء محام من السفارة المصرية ، و ...

قبل أن يتمّ عبارته ، وبإشارة صارمة من (كواليسكى) ، هوى أحد رجاله على ظهره بكعب مدفعه الآلى فى عنف ، فشهق (أسعد) وسقط بين ذراعى رجلين آخرين ، كبلاه بمنتهى العنف والقسوة ، و(كواليسكى) ، يقول فى حدة :

ـ خذوه .

جذب الرجال (أسعد) فى قسوة وخشونة ، فى حين التفت (كوالسكى) إلى الآخرين ، مستطردًا فى صرامة عصبية :

ـ انتظروا المصرى الآخر هنا .. سنحاصر المنطقة كلها سرًا ، وعندما يصبح داخل الفخ ، سننقض كلنا عليه فى عنف ، وتذكّروا جيدًا ..

وانعقد حاجباه كالشيطان ، وهو يضيف :

ـ لا أريده حيًا .

وهنا ..

هنا فقط ، اتسعت عينا (أسعد) عن آخرهما ..

لقد اتبع كل التعليمات ، ونفذ كل الإجراءات ، التى تدرّب عليها طويلاً ..

فيما عدا إجراء واحدًا ..

إجراء لم يرد ضمن الإجراءات التقليدية المتبعة ، فى مثل هذه الأحوال ..

لم يحذر (أدهم صبرى) مما ينتظره ..

ويالـه من خطأ ..

قاتل .

* * *

٨ـ الفخ ..

اكتسى صوت مدير المخابرات المصرية بكل توتر الدنيا ، وهو يعيد برقية (أسعد) الأخيرة إلى سطح مكتبه ، قائلاً :

ـ ماذا أصاب عملية (موسكو) هذه ؟! الأمور تتدهور هناك إلى حد مخيف .. تحالف منظمة (المافيا) مع الجناح الفاسد فى المخابرات الروسية جعل موقف رجالنا ضعيفًا للغاية .

قال نائبه فى مرارة :

ـ أى رجال ياسيّدى ؟! لقد سقط كل رجالنا هناك ، وآخرهم (أسعد) ، ولم يعد لدينا سوى سيادة العميد (أدهم) .

انعقد حاجبا المدير بشدة ، وهو يقول :

ـ السؤال هو : هل يعلم (ن ـ ١) بسقوط (أسعد) ، وانكشاف أمر المنزل الآمن الاحتياطى أم لا ؟

هزّ نائبه رأسه ، قائلاً :

ـ لا أحد يمكنه الجزم ياسيّدى ، فسيادة العميد (أدهم) يتحرك بسرية تامة ، مع سيل المعلومات التى زودناه بها ، عن منظمة (المافيا) وزعمائها ورجالها والأماكن التابعة لها ، حتى إننا نتلقى أخبار ضرباته بنفس الدهشة ، التى يتلقاها بها رجال الأمن هناك .

قال المدير فى ضيق :

ـ الواقع أن (ن ـ ١) قد تجاوز كل الحدود هذه المرة بالفعل .

لوّح نائبه بيده ، وهو يقول فى توتر :

ـ المشكلة أنه قد أشعل الأمور على نحو مخيف ، اختلف خبراؤنا فى تقييمه ، فبعضهم يرى أنه الأسلوب الأمثل ، للتعامل مع عبقرى نصف مجنون مثل (يورى إيفانوفيتش) ، والبعض الآخر يخشى

أن يغضب (يورى) ، ويندفع لقتل رهائنه .. وبلا رحمة .

عقد حاجبا المدير يلتقيان ، وهو يتمتم :

ـ فلنأمل ألا تبلغ الأمور هذا الحد .

ثم أشار بسبابته ، متابعًا :

ـ ولكن الأهم الآن هو أن نحذر (ن ـ ١) ، قبل أن يقع فى قبضة من سقط (أسعد) فى أيديهم .

هز نائبه رأسه فى قوة ، قائلاً :

ـ للأسف يا سيدى .. لسنا نجد وسيلة واحدة لتحذير سيادة العميد (أدهم) ، فى الوقت المناسب .

تراجع المدير فى مقعده ، وشبك أصابع كفيه أمام وجهه ، وهو يقول فى صرامة متوترة :

ـ لابد من إيجاد وسيلة ما ، وبأى ثمن ، لتحذير

(ن ـ ١) ، فلو سقط هو أيضًا فى قبضتهم ، ستصبح الكارثة شاملة .

وصمت لحظة ، قبل أن يضيف :

ـ ورهيبة .

ولم يكن من الممكن أن يضاف حرف واحد ..

أى حرف ..

* * *

« أين نحن بالضبط ؟! »

نطق (قدرى) العبارة ، وكل جزء من جسده البدين يرتجف ، نفس ارتجافة صوته المذعور ، وهو يجلس على الأرضية المعدنية ، لذلك الصندوق الحديدى الكبير ، الذى يضمه مع الآخرين ، والذى يرتج على نحو منتظم ، جعل (منى) تجيبه فى عصبية :

- داخل عربة قطار على الأرجح .

قالت (ريهام) فى توتر :

- بل قولى بالتأكيد ، فنحن ننطلق ، منذ أكثر من ساعة ، فوق قضبان معدنية .

تلفت (شريف) حوله ، قائلاً :

- ولكنها عربة قطار عجيبة .

قال الدكتور (أحمد) ، وهو يستند بظهره إلى جدار العربة :

- إنها عربة بضائع ، لها باب واحد مغلق بإحكام كما ترون .

قال (شريف) فى سرعة :

- وهنا يكمن عجبها يا دكتور (أحمد) ، فكل شىء فيما حولنا يوحى بأنها عربة بضائع .. الباب المعدنى السميك ، والجدران المصمتة .. والأرضية الخالية ،

ولكن كيف يتفق هذا مع أجهزة التهوية والتكييف فى السقف ؟

قال الدكتور (أحمد) :

- لا تعارض بين هذا وذاك ، فهى عربة بضائع ، ولكنها تستخدم فى نقل بعض الحيوانات ذات القيمة على الأرجح .

أطلق (قدرى) ضحكة عصبية ساخرة تفوح بالمرارة ، وهو يقول :

- حيوانات ذات قيمة ؟! أتقصد أشياء مثلنا .

هتفت به (منى) :

- لا تقل هذا .

قال فى حدة :

- ماذا أقول إذن ؟!

غمغم الدكتور (أحمد) :

ـ لا تفقد إيمانك بالله (سبحانه وتعالى) يا رجل .

وقالت (ريهام) فى سرعة :

ـ ولا ثقتك بالأستاذ .

ثم استدركت فى سرعة :

ـ أعنى بسيادة العميد (أدهم) .

قالت (منى) فى حزم :

ـ أنا واثقة من أنه لن يتركنا هكذا .

قال (قدرى) فى مرارة :

ـ وما الذى يمكن أن يفعله (أدهم) ، فى ظروف كهذه ؟!

هتف (شريف) فى حماسة :

ـ الكثير .

ثم استطرد فى حزم :

ـ أنتم لا تدركون قوة وعبقرية الأستاذ .. إنه قادر على تدميرهم جميعًا لو أراد .

قالت (منى) فى غضب :

ـ نحن نعرف (أدهم) أكثر منك .

وخفض (قدرى) عينيه ، مضيفًا :

ـ سيشعل الدنيا كلها لو اقتضى الأمر ، من أجلنا .

قال الدكتور (أحمد) فى مرارة :

ـ لو كان هذا فى استطاعته .

قال (شريف) فى حماسة حازمة :

ـ الأستاذ يمتلك إمكانات غير عادية .

قال الدكتور (أحمد) فى حزم :

ـ ولكنكم تنسون جميعًا أن جسده معرّض للانهيار فى أية لحظة .

وعلى الرغم من معرفتهم التامة لهذا ، إلا أن عبارته قد أصابتهم جميعًا بما يشبه الصدمة ، فحدقوا فى وجه الدكتور (أحمد) فى ارتياع ، جعل هذا الأخير يتابع ، فى مرارة شديدة :

- إنها حقيقة علمية للأسف ، فالجسد الذى لم يستكمل علاجه بالأكسجينية الفائقة(*) ، ينهار حتمًا فى أية لحظة ، عندما تعجز أجهزته عن احتمال الضغط العصبى والجسدى الزائد .

سأله (قدرى) فى ارتياع :

- ومتى يحدث هذا ؟!

هزّ الدكتور (أحمد) رأسه فى أسف ، قائلاً :

- فى أية لحظة .

بدا الذعر على وجوههم جميعًا ، وتمتمت (منى) :

- يا إلهى ! يا إلهى !

(*) Hyper Oxygenation

فجأة ، اعتدل (شريف) فى مجلسه ، ورفع رأسه إلى السقف ، قائلاً فى توتر شديد :

- ما هذا بالضبط ؟!

سأله (قدرى) فى ذعر :

- ماذا حدث ؟!

هتفت (ريهام) واقفة بدورها ، وهى تقول فى عصبية :

- هذه الرائحة .

لم تكد تنطق كلمتها ، حتى انتبه الكل إلى تلك الرائحة ..

رائحة أشبه بالأوزون ، جعلت الدكتور (أحمد) يهتف :

- رباه ! إنهم يضخون نوعًا من الغاز هنا ..

اتسعت عينا (قدرى) فى رعب ، عندما هتفت (منى) :

- أى نوع من الغاز ؟!

كان سقف الحجرة مرتفعًا ، وفتحات التهوية تمتدّ بطوله كله ، فتلفت الكل بعضهم إلى البعض فى عصبية شديدة ، دون أن يجيب أحدهم سؤالها ..

ودون أن تلوح فرصة واحدة للنجاة !

وفى أعماق الكل ، ، انطلق السؤال المخيف ..

ترى ما طبيعة هذا الغاز ؟!

وما تأثيره ؟!

وقبل أن تبحث عقولهم عن الجواب ، راحت (ريهام) تسعل فى شدة ، وهى تهتف :

- مستحيل ! لا يمكن أن ..

لم تستطع إكمال عبارتها ، مع نوبة السعال التالية ، التى أصابتها ، وأصابت الجميع معها ، فهتفت (منى) :

- أغلقوا أنوفكم بأى شىء .. أى شىء ..

ولكن الدكتور (أحمد) كان يسعل فى عنف شديد ، وهو يهتف :

- أيها القتلة الأوغاد .

قالها ، ثم سقط أرضًا ، وجسده يرتجف كله بضع لحظات ، قبل أن تخمد حركته تمامًا ..

ثم تبعته (ريهام) ..

وفى ذعر غير محدود ، راح (قدرى) يسعل فى عنف ، ويهتف :

- يا إلهى ! يا إلهى !

وأمام عينيه المذعورتين ، سقطت (منى) ، وهى تصرخ :

- أيها الحقراء .

وعندما بدأ جسدها يرتجف ، سقط (شريف) أيضًا ..



وأمام عينيه المذعورتين سقطت (منى) ، وهى تصرخ :
- أيها الحقراء ..

وبكل العنف ، تفجّرت الدموع من عينى (قدرى) ، وهو يسعل هاتفًا :

- ماذا يفعلون بنا ؟! يا إلهى ! ماذا يفعلون بنا ؟!

وراح بعدها يسعل ..

ويسعل ..

ويسعل ..

وغامت الدنيا أمام عينيه ، وراح جسده الضخم يرتجف ..

ويرتجف ..

ويرتجف ..

ثم همدت حركته بدوره ..

وعندما بدأت أجهزة الشفط فى سحب الغاز من عربة القطار المعدنية ، كانت الأجساد الخمسة ترقد على أرضيتها بلا حراك ..

على الإطلاق ..

* * *

لهثت (زوشـا) ، رفيقـة (بـورى إيفـانوفيتش) وحارسته الخاصـة ، وهى تعدو عبر ممـر فرعـى لمترو أنفاق (موسكو) ، قبل أن تبلغ قاعة قديمـة ، كانت تخص قسم الإصلاحات فى الستينات ، وتدلف إليها ، هاتفة :

- (بورى) .. هل بلغتك الأخبار ؟!

انعقد حاجباه ، وهو يجلس على مقعد كبير ، خلف مكتب عريق ، فى ركن القاعة القديمة ، ورفع هاتفه المحمول أمامها ، قائلاً فى غضب :

- بالطبع .. الرجل الوحيد الذى تبقَّى على قيد الحياة ، فى إسطبلات خيول السباق ، التى ورثتها عن (إيفان) ، أبلغنى منذ لحظة واحدة أن (يان جوجول) الوغد ورجاله قد اقتحموا المكان كالوحوش الثائرة ، وأطلقوا

النار على الخيول والرجال بلا تفرقة أو استثناء ، و(يان) الحقير يقول : إن هذا ثمن لما ..

بتر عبارته بغتة ، وتألقت عيناه ببريق وحشى ، قبل أن يتابع فى لهجة مختلفة :

- ثمن لما فعلته به !!

هتفت (زوشا) :

- هذا ما أردت أن أخبرك به .. (يان) أخبر الباقين ، بغضب هادر ، أنك قد طالبته بثلث أرباحه ، من تجارة السيارات المسروقة ، وعندما رفض ، أرسلت شيطاناً نسف كل السيارات ، وجراجه الضخم أيضًا .

انعقد حاجبا (بورى) بشدة أكثر ، وهو يقول :

- شيطان نسف كل شىء .

ثم تألقت عيناه فى غضب هادر ، وهو يضيف :

- إنه هو .

هتفت (زوشا) :

ـ هذا ما أردت قوله ..

تراجع (بورى) فى مقعده ببطء ، وأشعل واحدة من سجائره القصيرة ، التى انتشرت رائحتها النفاذة فى المكان فى سرعة ، وبدا غارقًا فى تفكير طويل عميق ، استغرق ثلاث دقائق كاملة ، قبل أن ينفث دخان سيجارته فى قوة ، قائلاً فى غضب صارم :

ـ ذلك المصرى ليس سهلاً .

هتفت (زوشا) فى انفعال :

ـ بالتأكيد .

تابع ، وكأنه لم يسمعها :

ـ إنه يسعى لتفرقتنا .. ضربة هنا ، وأخرى هناك ، منتحلاً صوتى مرة ، وصوت أحد الزعماء الفرعيين مرة أخرى .. نفس السياسة البريطانية القديمة .. (فرّق تسد) .. إنه يدفعنا لشن حروب فرعية ،

على بعضنا ، مما يتيح له السيطرة على الموقف كله .

قالت فى عصبية :

ـ لقد أخبرتك رأيى فى هذا الشأن .

لم يبد أنه قد سمعها ، فى هذه المرة أيضًا ، وهو ينفث دخان سيجارته ، ويميل إلى الأمام ، مكملاً :

ـ ومن الواضح أن لعبته مثمرة بالفعل ، بدليل ما فعله (يان) فى إسطبلاتى .. لقد نجح فى إثارة غضبه ، وإشعال رغبته فى الانتقام .

قالت فى حنق :

ـ ونحن مضطرون لرد ضربة (يان) ، حفاظًا على هيبتنا .

استدار إليها بحركة حادة ، هاتفًا :

ـ خطأ .

ثم نهض من مقعده بأسلوب أكثر حدة ، مستطردًا :

ـ هذا هو ما يسعى إليه ذلك المصرى بالضبط .. أن تشتعل الحرب بيننا .

وانعقد حاجباه على نحو مخيف ، وهو يتابع :

ـ وهذا ما لا ينبغى أن نسمح به أبدًا .

سألته فى توتر :

ـ ماذا سنفعل إذن ؟!

راح ينفث دخان سيجارته فى عصبية ، وهو يتحرك فى القاعة الصغيرة ، قائلاً بلهجة صارمة آمرة :

ـ اتصلى بالجنرال (كواليسكى) ، وأخبريه أننى أريد نسخة كاملة من الملف الرسمى لديهم ، عن (أدهم صبرى) هذا .. أريد معرفة كل شىء عنه .. طبيعته .. قدراته .. اهتماماته .. طباعه .. وحتى أحواله الاجتماعية والنفسية .. وأبلغى الكل أننا

سنعقد اجتماعًا على مستوى الزعماء ، فى مكان سيتم تحديده فيما بعد ، وأعلنى فى كل مكان أننا لاننوى توجيه أية ضربات انتقامية لـ (يان) أو سواه ، ثم أخبرى الزعماء .. والزعماء فقط أننا قد تعرّضنا لخدعة خبيثة ، من رجل المخابرات المصرى ، وإن الغضب الغبى وحده يمكن أن يسمح له بتكسيرنا جميعًا .

والتقط نفسًا عميقًا آخر ، قبل أن يقول فى صرامة :

ـ لقد قرّر ذلك المصرى أن يخوض مع (يورى إيفانوفيتش) معركة ذكاء عنيفة .

والتقى حاجباه ، وهو ينفث دخان سيجارته فى غضب ، مستطردًا :

ـ لذا فلا ينبغى أن نسمح له بالانتصار فيها .

واشتعل صوته مع غضبه ، وهو يضيف كوحش مفترس :

ـ أبدًا .

ومع كلمته الأخيرة ، أدركت (زوشا) أن أبواب الجحيم ستنفتح على مصراعيها ..

بلا حدود ..

أو رحمة ..

* * *

نهض مندوب شركة (أميجو) فى احترام ، عندما بلغت (اللاندروفر) الكبيرة إلى الجراج السرى الخاص ، فى أطراف (موسكو) ، ولم يكد يلمح (أدهم) ، الذى هبط منها فى هدوء ، حتى بدت عليه الدهشة ، وهو يقول :

ـ آه .. معذرة ياسيِّدى ، ولكنهم أخبرونى أننى سأنتظر السيِّد (أميجو صاندو) ، صاحب الشركة شخصيًا .

قال (أدهم) فى هدوء ، وهو يدرك أنه من المستحيل أن يتعرَّفه الرجل ، فى تنكره هذا :

ـ لا فارق بينى وبين السيِّد (أميجو) ، فأنا شقيقه .

ردَّ الرجل فى دهشة حذرة :

ـ شقيقه ؟!

ربَّت (أدهم) على كتفه ، قائلاً :

ـ لا تقلق يا رجل .. كل شىء يسير كما أراد السيِّد (أميجو) بالضبط .. هيا .. اعتنِ بالسيارة ، وراجع كل ما يتعلَّق بها جيدًا ؛ للتأكُّد من أن كل شىء على ما يرام .

قال الرجل فى حماسة :

ـ اطمئن ياسيِّدى .

ربَّت (أدهم) على كتفه مرة أخرى ، قبل أن يغادر المكان ، ويستقلَّ السيارة الرياضية الحمراء الصغيرة ، التى تنتظر خارجه ، والتى تحمل أرقامًا تخص السفارة البريطانية فى (موسكو) ..

وعندما انطلق بها ، انطلقت معها أفكاره ..

إنه يقود بالفعل حربًا عنيفة للغاية ..

ولكنها تؤتى ثمارها بنجاح تام ..

لقد بلغته أخبار هجوم (بان) ورجاله على إسطبلات (يورى إيفانوفيتش) ..

وكان هذا يعنى أن لعبته تسير فى الطريق الذى رسمه لها بالضبط ..

فرِّق تسد ..

سياسة أثبتت نجاحها عبر التاريخ ..

وحتى هذه اللحظة ..

ولكنه يلعب بالنار بالفعل ، كما يصرّ (أسعد) ..

يلعب بمشاعر وانفعالات رجل نصف مجنون ..

ونصف عبقرى ..

رجل قد يُقدم على أى عمل أخرق ، إذا ما اعترضت عبقريته لمحة جنون مباغتة ..

لذا ، فعليه أن يتحرك بأقصى سرعته ..

لا بد أن يربح الوقت ..

فالوقت أصبح يعنى الحياة ..

حياة كل من يحب ..

بلا استثناء ..

استعاد عقله صور (منى) ، و(أحمد) ، و(قدرى) ، و(شريف) ، و(ريهام) ..

ثم استقرّت فى ذهنه صورة (علاء) ..

الشهيد (علاء) ..

وفى مزيج مؤلم ، اختلط حزنه بغضبه ، وذاب كل هذا فى رغبة جديدة ، لم تتسلل إلى كيانه من قبل قط ..

رغبته فى الاعتزال ..

فلأول مرة فى حياته الحافلة ، يشعر بأنه لايرغب فى الاستمرار ..

ربما لأن الموقف ، فى هذه المرة ، يختلف عن كل المواقف السابقة ..

هذه المرة سقط الكل فى قبضة خصومه ..

وياله من موقف !

هزّ رأسه فى قوة ، لينفض عنه كل الأحزان والأفكار ، وهو ينطلق بسيارته الرياضية الحمراء ، فى شوارع (موسكو) ..

وعلى الرغم من الدوريات العديدة ، التى اعترضت طريقه ، إلا أن الكل تعامل معه باحترام شديد ، بعد المشكلات الدبلوماسية ، التى أثارها اعتراض سيارات الدبلوماسيين وتفتيشها ، خلال اليومين السابقين ..

ولأن الهوية الزائفة ، التى صنعها له (قدرى)

قبيل سقوطه ، كانت تبدو طبيعية ومتقنة للغاية ، فقد تجاوز كل العقبات فى سهولة ..

حتى بلغ ذلك المنزل الآمن الاحتياطى ..

وبينما يغادر سيارته ، أدار (أدهم) عينيه فيما حوله فى حذر ..

ولكن كل شىء كان يبدو طبيعيًا ..

وهادئًا ..

للغاية ..

ومن مخبأ سرى متقن ، راقبه (كواليسكى) ، عبر منظاره المقرّب ، وسأله مساعده فى حذر :

ـ أتظنه هو ؟!

أجابه (كواليسكى) فى صرامة :

ـ سنفترض هذا ، حتى يثبت العكس .

سأله مساعده :

ـ وكيف يثبت ؟!

صمت (كواليسكى) لحظة ، قبل أن يجيب فى حزم :

ـ منزلهم الآمن يقع فى الطابق الأخير ، وكل طابق من هذه البناية يضم شقة واحدة ، وهذا يعنى أنه لو صعد إلى الطابق الأخير ، فهو (أدهم صبرى) لا محالة .

غمغم مساعده :

ـ فليكن .. سأصدر الأوامر إلى كل رجالنا ، داخل وخارج ذلك المنزل الآمن ، ليبدءوا هجومهم ، فور وصول هذا الرجل إلى الطابق الأخير .

قال (كواليسكى) فى صرامة :

ـ بالضبط .

أما (أدهم) فقد شد قامته ، وراح يصعد فى درجات سلم المبنى فى هدوء ، وهو يعيد دراسة موقفه ، وخطواته التالية المنتظرة ، و ...

وفجأة ، وعندما بلغ درجات سلم الطابق الأخير ، اشتعل فى أعماقه شىء ما ..

مصباح أحمر ، أضاءته غريزته فى أعمق أعماقه ، لتعلمه بأن شيئاً ما ليس على ما يرام ..

لم يكن هناك سبب منطقى واحد لشعوره هذا ..

ولكنه أيقظ كل حواسه بلا استثناء ..

والعجيب أنه ، وعلى الرغم من هذا ، واصل طريقه فى قلق ، حتى بلغ الطابق الأخير ، حيث المنزل الآمن الاحتياطى ..

ثم انعقد حاجباه فى شدة ..

واستوعب عقله الموقف كله من مشهد واحد ..

مشهد رتاج الباب ، الذى نسفته رصاصات رجال (كواليسكى) ..

وفى اللحظة نفسها ، التى لمح فيها (أدهم) هذا ، هتف مساعد (كواليسكى) :

ـ لقد بلغ الطابق الأخير .

وهنا ، ودون أن يضيع لحظة واحدة ، هتف (كواليسكى) فى شراسة ، عبر جهاز الاتصال اللاسلكى المحدود :

ـ هجوم .

نقلت أمواج اللاسلكى هتافه إلى كل رجاله ..
داخل المنزل الآمن ..

وفى الطوابق الأخرى للمبنى ..

والسطح ..

وكل الشوارع المحيطة ..

وفى لحظة واحدة ، وكالسيل الجارف ، بدأ الهجوم ..

على كل الجبهات ..

وبمنتهى العنف .

* * *

انتهى الجزء الثالث بحمد الله

ويليه الجزء الرابع بإذن الله

(الضحايا)